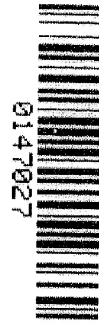


الأفراح المتتمة

لجبران خليل جبران



Bibliotheca Alexandrina

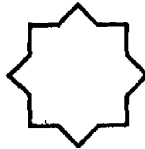
دار العرب
للطباعة

٢. ش القجالة — القاهرة

الأفراح المبتكرة

جبوان خليل جبوان

« إن جميع كتابات جبوان تدعو إلى التفكير
العميق . فإن كنت تخاف أن تفكر فالأجدر
بك ألا تقرأ جبوان .. »



دار الجروب

للسنة ١٥٥٤

٢٨ ش الفجالة — القاهرة

« إلى الروح التي عانقت روحي . إلى القاب الذي سكب
أمراره في قلبي . إلى اليد التي أوقدت شعلة عواطفني ارفع
هذا الكتاب »

(جبران)

مقدمة وانتقاد

بقلم صاحب جريدة المهجر

يقول لنا المثل السائر إن لكل جديد طلاوة وهو قول ينطبق على كل شيء ما خلا الأفكار في المسائل الاجتماعية . فالناس لا يحبون استبدال عادة من عاداتهم بغيرها ولا يقبلون ملاحظة على طريقة من طرق معيشتهم لكنهم في كل الأحيان يجدون أنفسهم سالكين رويداً رويداً في السبيل الذي ما أحبوه وبموجب الملاحظة التي لم يقبلوها .

من ذلك الحقائق العامة التي كلما شاع أمر واحدة جديدة منها ينكرها الناس أولاً ثم تراهم بعد حين أخذوا يعتقدون بها ويستعملونها ، ومن ذلك الأزياء والأخلاق التي يظن كل منا أنه تابع فيها آثار أسلافه بكل تدقيق وضبط ويفتخر بكونه محافظاً عليها في حين أننا نعلم أن كل عصر من العصور مستقل عن سواه بعاداته وأخلاقه

ما هي الأفكار الجديدة ؟ كلما قام أديب في عصر وقال قولا مخالفاً للنظام الجاري يقوم بعض معاصريه وينكرون عليه كون ذلك القول جديداً . يقولون إن فلاناً سبقك إلى هذا

الفكر ولم يستطع اثباته وتأنيده ، أما عند كاتب هذه المقدمة فالشيء لا يكون قديماً أو جديداً بحد ذاته لأنه كأن مستقل عن الزمان والمكان . لكنه يكون كذلك بالنظر إلى من يسمعه أو يراه . ما ليس جديداً عندك ربما يكون جديداً عندي ، وما هو قديم عند كلينا ربما يكون جديداً عند كثيرين غيرنا

والافكار الجديدة هي قسم من الاشياء التي تدخل خلايا الدماغ في رؤوس البشر عن طريق العين والاذن والشم واليد . عن طريق الحواس الخمس . وهناك تتجسم وتتصور ثم تخرج لابساً الثياب التي أعدتها لها نفس الانسان من طبيعتها ومواهبها . هذا يرسم لنا رسماً وذاك يسمعنا نغماً وذاك يكتب لنا كتابةً وغيره يسمعنا كلاماً وهم جراً

وهي أيضاً من الاشياء التي تؤثر على ناظرها وسامعها والشاعرين بها تأثيراً لا يمكن أن يرد أو يعارض فتمت سمعت بفكر جديد لا تطمئن بمقاتلته لأن ذلك لا يقتله بل اتركه يسير في سبيله والظروف المؤلفة من مجموع آراء الهيئة الاجتماعية تتكفل بقتله ان كان مضرراً وباحيائه وتعزيزه إن كان نافعاً

ما هو غرض الفلسفة الاجتماعية ؟ غرضها البحث عن الاسباب الاولى التي تؤول إلى سعادة البشر أو تعاستهم . والفلاسفة يختلفون في استقصاء تلك الاسباب وتصويرها لكن اختلافهم يجيء دائماً بالنتائج الحسنة لأن الاشياء تتميز باضدادها . هذا

يشخص أمراض الناس المعنوية ويعترض على عادات وأخلاق
لاترضيه ويصف لها أدوية حسبما يقيس ويرى . وذلك يعارضه
في الرأي ويصف أدوية من غير نوع . ولا تكون نتيجة هذا
الاحتكاك والاختبار إلا نبذ الباطل والتمسك بالحقيقي

قارئ هذه السطور سيع بدون شك في حياته كثيراً من
الشكاوى والتذمرات . وربما اشتكى وتذمر غير مرة من أمور
مختلفة في هذه الدنيا لا يستنسب وجودها على الشكل الحاضر .
وجبران خليل جبران كاتب هذا الكتاب هو مثل قارئ هذه
السطور انسان قد سمع ورأى الشكاوى والتذمرات وتأثر أيضاً
في دوره واشتكى وتذمر . فخطرت بباله طرق عديدة لاصلاح
ما يثمرمر الناس منه ووضع منذ مدة قريبة كتاباً دعاه عرائس
المروج ثم أضاف الآن إليه حلقة ثانية في كتاب الارواح المتمردة
وألقى على مسئولية النظر في كتابه الثاني كما كلفني مثل هذا
الحمل الثقيل في كتابه الاول على رغم ما أشعر واعترف به من
العجز عن الاتيان بشيء مفيد من موضوع لا يكتفى بالنظر السطحي
اليه بل يقتضى الدرس والتفكير مدة الياالى الطويلة التى نتج هذا
الكتاب عن طول السهر فيها

جميع التعاليم الجديدة تموت إن كان مصدرها الخيال والوهم
وتحميا إذا كانت منبثقة من سر خفى من أسرار القلب البشرى .
وكانت صدى العاطفة الوضعية التى أوجدها الله فى النفس من

حينما خلق النفس وصورت للناس بكلام صريح تلك الحاسات
التي يشعر بها ويعرف حقيقتها كل بشرى لكنه يخاف من قريبه
فلا يظهرها لقريبه

ومعلوم أن لكل عصر مسائل خاصة به تشغل أفكار بنييه .
ومسئلة المسائل التي تحوم الفكرة البشرية في أيامنا هذه حولها
على غير معرفة منها تتألف من ثلاثة أشياء : البيت (العائلة)
والكنيسة (الدين) والمحكمة (الشريعة) وسوف تبقى الفكرة
البشرية حائمة حتى تدرك القصد والسر من هذه الاشياء الثلاثة
فتبلغ بواسطة إدراكها هذا احضار السعادة والسعادة هي السبب
الاولي الذي نحيا ونموت من أجله

ثم اننا لا نقدر على بلوغ السعادة بواسطة ما يحيط بنا من
الصور والاشباح والاصوات والمقائد بل بواسطة العاطفة
النفسية الوضعية الكائنة في أعماق الفرد الواحد . فعلى عاطفة
الفرد الواحد بنى المؤلف تعاليمه لان متاعب الحياة كلها في هذه
الدنيا ناتجة عن اختلاف ذلك الفرد الواحد مع زوجته في البيت
وكاهنه في الكنيسة وشريعته في المحكمة . وفوق ذلك لا ريب
في أن استسلام الانسان الذي وجد حراً لا أفكار غيره وعقائد
أسلافه قهراً وجبراً هو أكبر أسباب تعاسته لان الانسان يرضى
ويتسلى عن كل ما ينتابه من يده لكنه قلما يرضى ويتسلى عما ينتابه
من يد غيره

يقول لك الوالد « انت عقوق اذا كنت لا تفعل مثلى » ويقول
لك الكاهن « أنت كافر اذا كنت لا تصلى صلاتى » وتقول لك
المحكمة « انت مجرم اذا كنت لا تتبع شرائعى » فتجيبهم « ولماذا »
فيقولون لك « لأن جميع الناس يفعلون ذلك » فتصرخ متوجعاً
« ولكن جميع الناس تعساء وأنا أريد أن أكون سعيداً » فيقولون
لك « كن مثل جميع الناس لأنك لست أفضل منهم » وهكذا أيها
القارئ يظل البشر عائشين وأشباح جدودهم حية في أجسادهم كما
سيريك جبران في كتابه هذا

ففي الرواية الاولى وهى السيدة وردة قد استمد أفكاره من
أوليات يعترف الناس بها لكنهم عن خوف من أشباح الجدود
لا يقولون إنهم سيتبعونها . أوليات هى تحرير العاطفة الوضعية
فى نفس الفرد الواحد من عبودية كل من وما يحيط به وإنقاذ آميال
القلب من آراء الناس غير المبنية على قياس صحيح وظاهر
والاقرار لكل فرد بحق السعى المتواصل لما فيه سعادته من حيث
لا يضر بالآخرين ، فالذى يقرأ السيدة وردة يظن أن جبران مثلاً
يخالف شرائع الله ويحسن للناس حالة المرأة الخائنة التى طلقت
زوجها لتقترن بغيره . يظن كذلك لأنه لا يكون عارفاً من معنى
قوانا (المرأة الخائنة) ومن معنى كلمة (زوجها) الا ما قال له
بعض الناس إنها تعني

يقول لذا السيد المسيح فى انجيله المقدس « ما ازوجه الله لا

يفرقه الانسان . ونحن بكل احترام ننحى أملهذا القول المقدس ونسلم به تسليماً مطلقاً لا يةنل الشك ولا الارتياب . لانحاول تفريق ماأزوجه الله ولكن كم من زيجة في هذا العالم الفاسد نُعيدُ الله وعدله من ان يكون هو الذى أزوجها . كم من زيجة سعى بها الوالد الشرير والوالدة الظالمة وعقدها الكاهن المغشوش أو الكاهن الكاذب بين رجل وامرأة لايعرف احد قلبيهما القلب الآخر ولا تخرج احدى نفسيهما بالنفس التى القيت غصباًعليها لايكفى ان يتلو الكاهن امام الشهود صلاة الاكليل المعروفة حتى يصير الرجل والامراة زوجاً وزوجة ، انما هنالك فى أعماق القلب صلاة يتلوها الله الذى هو المحبة والمحبة هو — وبدون ان تتلى لا يكون ماأزوجه الكاهن زواجاً ولايجوز فقط بل يجب على الانسان تفريقه ، فالسيدة ورده كما سيراى القارى الكريم لم يزوجها الله بالرجل الذى طلقته من بعد الزواج وقال الناس إنها خائنة وكافرة ، إنما أزوجها به الانسان والناس قد صميت بصائرهم حتى ماعادوا يفرقون بين الله والوالدين والكاهن وصارواكلما بدت تماسة عائلية فى موضع يتمتمون لناكالبيغاء قول الانجيل الذى لا يفهمونه صائحين « ماأزوجه الله لا يفرقه إنسان »

أما حكاية صراخ القبور فهي كلمة صغيرة من ذلك الحديث المجمع الذى ترويه قرأني المحاكم وزوايا السجون — هى خلاصة

قصيرة لما يستره المحامون والقضاة من أحكامهم تحت ستور الالفاظ
الكثيرة والجميل الطويلة . والقارئ يتصور بأمر هذه الحكاية
أما بربر أغا في طرابلس وأما الجزار في عكا وأما ابراهيم باشا
المصرى في سوريا . ولا يتصور قاضياً من قضاة هذا العصر
يقول ما يهوله الامير ولكن متى تأمل القارئ بنتيجة عدالة
هذه الايام ومتى رأى كثيراً من القتلة وسفاحى الدماء يسرحون
ويعرحون وكثيراً من البائسين المساكين يئنون في ظلمات السجون .
متى رأى المجرم الكبير حراً والمجرم الصغير مقيداً مسجوناً عند
ذلك يرى ان جبران لم يصور في احكامه الا الحقيقة الحاضرة
في أيامنا هذه وإنما بثوب غير ثوبها الريائى الشفاف من الالفاظ .
هى حكاية حسنة لكنها في عرف الاكثرين مخيفة — مخيفة لأن
الحقيقة التى تتخذ لها من أطوار هذا العصر وظلمه ثوباً أسود
تكون مخيفة ومزعجة للذين يعيشون في ظل الغباوة
اما حكاية مضجع العروس فتروى ان عروستها أكثر تمرداً
من ابطال سائر الروايات لأنها كسرت القيود الظالمة والضالة قبل
أن تفرغ يد الجامعة من حبكها . وفضلت الموت مع حبيبها على
البقاء مع الرجل الذى اختاره الكذب والحبث بعلاً لها . ولقد
قال لنا احد فضلاء الكهنة لما انتشرت هذه الرواية في جريدة
المهاجر أنها خالية من مقاربة الحقيقة وهذا كما يعلم أرباب هذا
الفن من أوجب الصفات لأمثال هذه الروايات . فقلنا له ولماذا .

فقال لأننى لا أعتقد بأن كاهناً مسيحياً يكلل عروساً قبل ان يثقب
منها برغبتها فى اقتبال بركة الاكليل ، فقلنا له عفواً أيها الاب
الفاضل ولكن نحن نعتقد . . . وليس كل ما تقوله كل عروس
فى مثل تلك الظروف يعنى ضرورة ما يحتاج أعماق قلبها . فهناك
العادات والملاحظات وما جرى مجراها

أما حكاية خليل الكافر فهى أشبه شىء بحكاية يوحنا المجنون
فى كتاب عرائس المروج ، والفرق بينهما هو أن يوحنا مات
مغلوباً أما خليل فعاش منتصراً على أعدائه التعمساء والمساكين .
يوحنا شعر بالنير الثقيل الذى وضعه الرهبان والكهنة على أعناق
الفلاحين الفقراء فصرخ صوتاً عميقاً محزناً ومات . أما خليل فكان
قادراً بحجته القوية على الوقوف أمام الامراء والقضاة ولذلك
عاش مغبوطاً فى تلك القرية القريبة من غابة أرز لبنان

صعب على قى أيماننا هذه أن يصدق كل ما يحكى عن استبداد
بعض الأعيان والكهنة فى الشعوب التى سبقها الزمان فى سيره
فترمت وهى فى المصر المشرين فى المصور الغابرة المظلمة . صعب
على الواقف فى النور أن يرى الاشباح المنسابة فى أعماق الظلمة .
وصعب على المستيقظ ان يروي حقيقة الأحلام المزعجة . ولكن
بين فتیان هذه الايام شيوخ عاشوا فى النصف الاول من القرن
التاسع عشر . فمن يتهم جبران بالمبالغة والغلو عليه أن يسأل

أولئك الفتيان الذين بيض الدهرُ مفارقهم فيسمع ما يذيب النفس
ويُدعى الفؤاد .

وهكذا يرى القارئ البيب ان كتاب الأرواح المتمردة
الذي يجتمع فيه المجنون بالعاقل والمتمرد بالمطيع والمظلوم بالظالم
والساقطة بالفاضلة والعاشق بالخلي هو الجدار الثاني من بيت يبنيه
جبران وكانت عرائس المروج جداره الاول وعلى جدران هذا
البيت يحاول الكاتب الذي جمع ذكاء لبنان الى اجتهاد الولايات
المتحدة وأفكار الفيلسوف القاسية والمرجفة إلى ألفاظ المصور
الرقيقة والموسيقية أن يرسم عواطف طبقات الناس المتفاوتة من
المستمطى إلى الأمير ومن الكافر إلى القديس ويصور حالات
الأزمة والفصول من ظلام الليل إلى ضوء النهار ومن نواح
الحريف إلى اغاني الربيع

(امين الغريب)

السيدة وردة

وردة الهانى

١

ما أنعس الرجل الذي يحب صبية من بين الصبايا
ويتخذها رفيقة لحياته ، ويهرق على قدميها عرق جبينه ودم
قلبه ، ويضع بين كفيها ثمار أتعابه وغلة اجتهاده ، ثم ينتبه
فجأة فيجد قابها الذي حاول ابتياعه بمجاهدة الأيام وسهر
الليالى قد أعطي مجاناً لرجل آخر ليتمتع بمكنوناته ويسعد
بسرأى محبته .

وما أنعس المرأة التي تستيقظ من غفلة الشيبية فتجد
ذاتها فى منزل رجل يفرها بأمواله وعطاياه ويسر بلها
بالتكريم والمؤانسة لكنه لا يقدر أن يلامس قلبها بشعلة
الحب المحيية ولا يستطيع أن يشبع روحها من الحمرة السماوية
التي يسكبها الله من عيني الرجل فى قلب المرأة .

*
* *

عرفت رشيد بك نعيان منذ حداثتي . وهو رجل
لبناني الأصل يروتي المولد والدار متحدر من أسرة قديمة
غنية موصوفة بالمحافظة على ذكر الأجداد الغابرة ، فكان
مولدًا بسرد الحوادث التي تبين نبالة آباءه وجدوده متبعًا
بعميشته عقائدهم وتقاليدهم منصرفًا الى تقليدهم في العادات
والأزياء الغربية المرفرفة كأسراب الطيور في فضاء الشرق
وكان رشيد بك طيب القلب كريم الاخلاق لكنه
كالكثيرين من سكان سوريا لا ينظر الى ما وراء الاشياء
بل الى الظاهر منها . ولا يصني الى نعمة نفسه بل يشغل
عواطفه باستماع الأصوات التي يحدثها محيطه . ويأبى آمياله
بهرجة المراتب التي تعمى البصيرة عن أسرار الحياة وتحول
النفس عن ادراك خفايا الكيان الى ملاحظة الملذات الوقتية .
وكان من أولئك الرجال الذين يتسرعون باظهار محبتهم أو
مقتهم للناس وللأشياء ثم يندمون على تسرعهم بعد فوات
الوقت عند ما تصير الندامة مجلبة للسخرية والاستهزاء بدلاً
من العفو والغفران

هذه هي الصفات والأخلاق التي جعلت رشيد بك
نعمان يقترب بالسيدة ورده الهانى قبل أن تضم نفسها نفسه
فى ظل المحبة الحقيقية التى تجعل الحياة الزوجية نعماً

غبت عن بيروت بضعة أعوام ولما رجعت إليها ذهبت
لزيارة رشيد فوجدته ضعيف الجسد مكمد اللون تهايل على
سجنته المنقبضة أشباح الأحرار وتنبعث من عينيه الحزینتين
نظرات موجعة تتكلم بالسكينة عن انسحاق قلبه وظلمة
صدره . وبُعید أن بحث فى محیطه ولم أجد أسباب نحوله
وانقباضه سألته قائلاً : « ما أصابك أيها الرجل وأين تلك
البشاشة التى كانت تنبعث كالشعاع من وجهك . وأين ذهب
ذاك السرور الذى كان ملاصقاً شببتك ؟ هل فصل الموت
بينك وبين صديق عزيز . أم سلبتك اللیالى السوداء ملاً
جمعته فى الأيام البيضاء ؟ قل لى بحق الصداقة ما هذه الكتابة
المعانقة نفسك وهذا النحول المالك جسدك »
فنظر الى نظرة متأسف أرتة الذكرى رسوم أيام جميلة

ثم حجبتها. وبصوت تنموج في مقاطعه معاني اليأس والقنوط
قال : « اذا فقد المرء صديقاً عزيزاً والتفت حوله يجده
الأصدقاء الكثيرين فيتصبر ويتعزى ، واذا خسر الانسان
مالاً وفكر قليلاً رأى النشاط الذى أتى بالمال سيأتى بمثله
فينسى ويسلو. ولكن اذا أضعاع الرجل راحة قلبه فأين يجدها
وهم يستعيز عنها ؟ يد الموت يده ويصفعك بشدة فتتوجع
ولكن لا يمر يوم وليلة حتى تشعر بلامس أصابع الحياة
فتبتسم وتفرح . يجيئك الدهر على حين غفلة ويحدق بك
بأعين مستديرة مخيفة ويقبض على عنقك باظافر محددة
ويطرحك بقساوة على التراب ويدوسك بأقدامه الحديدية
ويذهب ضاحكاً ثم لا يلبث أن يعود إليك نادماً مستغفراً
فينتشلك بأكفه الحريية ويفنى لك نشيد الامل فينزل بك
مصائب كثيرة ومتاعب ألوية تأتلك مع خيالات الليل تضمحل
أمامك بمجىء الصباح وأنت شاعر بعزيمتك متمسك بأمالك.
ولكن اذا كان نصيبك من الوجود طائرأ تحبه وتطعمه

(٢ — الارواح المتمرده)

حبات قلبك وتسقيه نوراً أحداقك وتجعل ضلوعك له قفصاً
ومهجتك عشاً . وبينما أنت تنظر الى طائرک وتغمر ريشه
بشعاع نفسك اذ به قد فرّ من بين يديك وطار حتى حلق
السحاب ثم هبط نحو قفص آخر وما من سبيل الى رجوعه
فاذا تفعل إذ ذاك أيها الرجل ، قل لى ماذا تفعل وأين تجد
الصبر والسلوان وكيف تحيى الآمال والامانى ؟ »

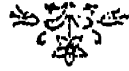
لفظ رشيد بك الكلمات الأخيرة بصوت مخنوق
متوجع ووقف على أقدامه مرتجفاً كقصبة فى مهب الريح
ومد يديه الى الامام كأنه يريد أن يقبض بأصابعه المعوجة على
شئ ليمزقه إرباً إرباً وقد تصاعد الدم الى وجهه وصبغ بشرته
المتجمدة بلون قائم وكبرت عيناه وجدت أجفانه وأحرق
دقيقة كأنه رأى أمامه عفريتاً قد انبثق من العدم وجاء ليميته .
ثم نظر الى وقد تغيرت ملامحه بسرعة وتحول الغضب
والحنق فى جسده المهزول الى التوجع والالم وقال باكية :
« هى المرأة — المرأة التى أنقذتها من عبودية الفقر وفتحت
أمامها خزائنى وجملتها محسودة بين النساء على الملابس

الجميلة والخلي الثمينة والركبات الفخمة والخيول المطهمة —
المرأة التي أحبها قلبي وسكب على أقدامها عواطفه ومالت
إليها نفسى فغمرتها بالمواهب والعطايا — المرأة التي كنت
لها صديقاً ودوداً ورفيقاً مخلصاً وزوجاً أميناً قد خانتني
وغادرني وذهبت إلى بيت رجل آخر لتعيش معه في ظلال
الفقر وتشاركه بأكل الخبز المعجون بالعار وشرب الماء
المزوج بالذل والعيب — المرأة التي أحبتها — الطائر الجليل
الذي أطعمته حبات قلبي وأسقيته نور أحداق وجعلت
ضلوعى له قفصاً ومهجتي عشاً قد فر من بين يدي وطار
إلى قفص آخر محبوك من قضبان العوسج ليأكل فيه
الحسك والديدان ويشرب من جوانبه السم والعلقم —
الملاك الطاهر الذي أسكنته فردوس محبتي وانعطافى قد
انقلب شيطاناً مخيفاً وهبط إلى الظلمة ليتعذب بآثامه
ويعذبني بجريمته »

وسكت الرجل وقد حجب وجهه بكفيه كأنه يريد
أن يحى نفسه من نفسه ثم تنهد قائلاً : « هذا كل ما أقدر

أن أقوله فلا تسألني أكثر من ذلك ولا تجعل لمصيبتي
صوتًا صارخًا بل دعها مصيبة خرساء لعلها تنمو بالسكينة
فتميتني وتريجني «

فقت من مكاني والدموع تراود أجفاني والشفقة
تسحق قلبي. ثم ودعته ساكتًا لأنني لم أجد في الكلام معنى
يمزى قلبه الجريح ولا في الحكمة شعلة تنير نفسه المظلمة.



بعد أيام التقيت لأول مرة بالسيدة وردة الهانئ
 في بيت حقير محاط بالزهور والاشجار . وكانت قد سمعت
 لفظ اسمي في منزل رشيد بك نعمان ، ذلك الرجل الذي
 داس قلبه وتركته ميتاً بين حوافر الحياة . ولما رأيت
 عينيها المنيرتين وسمعت نغمة صوته الرخيمة قلت في ذاتي
 « أتقدر هذه المرأة أن تكون شريرة ؟ وهل بإمكان هذا
 الوجه الشفاف أن يستر نفساً شنيعة وقلباً مجرماً ؟ أهذه
 هي الزوجة الخائنة ؟ أهذه هي المرأة التي جنبت عليها
 مرات عديدة بتصويرها لفكرى كنعان مخيف مخيف »
 في جسم طائر بديع الشكل ؟ « ولكني رجعت وهمست
 في سري قائلاً : « إذا أي شيء جعل ذلك الرجل نكساً إذا
 لم يكن هذا الوجه الجميل ؟ أو لم نسمع ونر أن المحاسن
 الظاهرة كانت سبباً لمصائب خفية هائلة وأحزان عميقة
 أليمة ؟ أوليس القمر الذي يسكب في قرائح الشمر ، شعاعاً

هو القمر الذي يهيج سكينه البحار بالمد والجزر ،
جاست وجلست السيدة ورده وكأنها قد سمعتني
مفتكراً فلم ترد ان يطول الصراع بين حيرتي وظنوني ،
فأسندت رأسها الجميل بيدها البيضاء وبصوت يحاكي نغمة
النار رقة قالت : « لم ألتق بك قبل الآن أيها الرجل
ولكني سمعت صدى أفكارك وأحلامك من أفواه الناس
فمررتك شفوفا على المرأة المظلومة ، رؤوفاً بضعفها ، خبيراً
بعواطفها وميولها . من أجل ذلك أريد ان أبسط لك قلبي
وأفتح أمامك صدري لتري مخبأته وتخبر الناس ان شئت
بأن ورده الهنائي لم تكن قط امرأة خائنة شريرة . . .
كنت في الثامنة عشرة من عمري عند ما قادني القدر الى
رشيد بك نعمان وكان هو اذ ذاك قريباً من الأربعين
فشغف بي ومال اليّ ميلاً شريفاً كما يقول الناس ، ثم جعلني
زوجة له وسيدة في منزله الفخم بين خدامه الكثيرين .
فألبسني الحرير وزين رأسي وعنقي ومعصمي بالجواهر
والحجارة الكريمة وكان يمرضني كتحفة غريبة في منازل

أصدقائه ومعارفه ويتسم ابتسامة الفوز والانتصار عند ما يرى عيون أترابه ناظرة اليه باعجاب واستحسان ويرفع رأسه تهاً وافتخاراً اذ يسمع نساء أصحابه يتكلمن عنى بالاطراء والمودة . لكنه لم يكن يسمع قول السائل (أهذه زوجة رشيد بك أم هي صبية تبناها) وفول الآخر لو تزوج رشيد بك فى زمن الشباب لكان بكره أكبر سنا من ورده الهانى) .

جرى كل ذلك قبل أن تستيقظ حياتى من سبات الحداثة العميق وقبل أن توقد الالهة شعله المحبة فى قلبى وقبل أن تنبت بذور العواطف والامبال فى صبردى . نعم جرى كل ذلك عند ما كنت أحسب منتهى السعادة فى ثوب جميل يزين قامتى ومركبة نعمة تجرنى ورياش ثمينة تحيط بى ولكن عند ما استيقظت — عند ما استيقظت وفتح النور أجفانى وشعرت بالسنه النار المقدسة تلسع أضلقى وتحرقها — وبالمجاعة الروحية تقبض على نفسى فتوجعها — عند ما استيقظت ورأيت أجنحتى تتحرك

يميناً وشمالاً وتريد النهوض بي الى سماء المحبة ثم ترتجف وترتخي عجزاً بجانب سلاسل الشريعة التي قيدت جسدي قبل أن أعرف كنه تلك القيود ومفاد تلك الشريعة — عند ما استيقظت وشعرت بهذه الاشياء عرفت بان سعادة المرأة ليست بمجد الرجل وسؤدده ، ولا بكرمه وحامه ، بل بالحب الذي يضم روحها الى روحه ويسكب عواطفها في كبده ويجعلها ويجمعه عضواً واحداً من جسم الحياة وكلمة واحدة على شفقي الله . عند ما بانّت هذه الحقيقة الجارحة لبصيرتي رأيتني في منزل رشيد نعمان مثل لص سارق يأكل خبزه ثم يستتر بظلام الليل . وعرفت أن كل يوم أصرفه بقربه هو كذبة هائلة يخطبها الرياء بأحرف نارية ظاهرة على جبهتي أمام الأرض والسماء ، لأنني لم أقدر أن أهبه محبة قلبي لقاء كرمه ولا أن أمنحه انعطاف نفسي ثمناً لإخلاصه وصلاحه . وقد حاولت وباطلاً حاولت أن أتعلم محبته فلم أتعلم . لأن المحبة هي قوة تبتدع قلوبنا ، وقلوبنا لا تقدر أن تبتدعها . ثم صليت وتضرعت وباطلاً تضرعت وصليت

في سَكينة الليالى أمام السماء لتولد في أعماق عاطفة روحية
تقربني من الرجل الذي اختارته رفيقاً لى. فلم تفعل السماء لأن
المحبة تهبط على أرواحنا بإيعاز من الله لا بطلب من البشر .
وهكذا بقيت عامين كاملين في منزل ذلك الرجل أحسد
عصافير الحقل على حررتها . وبنات جنسى يحسدننى على
سجنى . وكالتكى الفاقدة وحيدها كنت أندب قلبى الذى
ولد بالمعرفة واعتل بالشريعة وكان يموت في كل يوم جوعاً
وعطشاً . ففي يوم من تلك الأيام السوداء نظرت من وراء
الظلمة فرأيت شعاعاً لطيفاً ينسكب من عيني فتى يسير
وحده على سبيل الحياة ، ويعيش منفرداً بين أوراقه وكتبه
في هذا البيت الحقيق . فأغمضت عيني كيلاً أرى ذلك
الشعاع وقلت لنفسي (نصيبك يا نفس ظلمة القبر فلا تطمعي
بالنور) ثم أصغيت فسمعت نغمة علوية تهز جوارحي
بعذوبتها وتمتلك كليتي بطهرها فأغلقت أذني وقلت :
(نصيبك يا نفس صُراخ الهاوية فلا تطمعي بالأغاني) . . .
أغمضت أجفاني كيلاً أرى وأغلقت أذني كيلاً أسمع .

لكن عينيّ ظللتا تريان ذلك الشماع وهما مطبقتان وأذني
تسمعان تلك النغمة وهما مغلقتان خفت لأول وهلة خوف
فقير وجد جوهرة بقرب قصر الأمير فلم يجسر أن يلتقطها
لخوفه ولم يقدر أن يتركها لفاخته . وبكيت بكاء ظامئ رأى
الينبوع المذب محاطا بكوايسر الغاب فارتقى على الارض
مترقباً جازعاً «

وسكتت السيدة وردة دقيقةً وقد أغمضت عينيها
الكبيرتين كأن ذلك الماضى قد انتصب أمامها فلم تجسر أن
تُحدق بي وجهاً لوجه . ثم عادت وقالت : « هؤلاء البشر
الذين يميثون من الأبدية ويعودون إليها قبل أن يذوقوا
طعم الحياة الحقيقية لا يمكنهم أن يدركوا كنه أوجاع المرأة
عندما تقف نفسها بين رجلٍ تحبه بإرادة السماء ، ورجلٍ
تلتصق به بشريعة الأرض . هي مأساة ألّيمة مكتوبةٌ بدماء
الأنثى ودموعها يقرأها الرجل ضاحكاً لأنه لا يفهمها وإن
فهمها انقلب ضحكهُ فجوراً وقساوةً وأنزل على رأس المرأة
من غضبه ناراً وكبريتاً وملاً أذنيها لعناً وتجديفاً . هي رواية

موجعة تمثلها الليالى السوداء بين ضلوع كل امرأة تجد
جسدها مقيداً بمضجع رجل عرفته زوجاً قبل ان تعرف
ماهى الزيجة . وترى روحها مرفرفة حول آخر تحبه بكل
ما فى الروح من المحبة وبكل ما فى المحبة من الطهر والجمال .
هو نزاع مخيف قد ابتداء منذ ظهور الضعف فى المرأة
والقوة فى الرجل ولا ينتهى حتى تنقضى أيام عبودية الضعف
للقوة . هى حرب هائلة بين شرائع الناس الفاسدة وعواطف
القلب المقدسة قد طُرحت بالأمس فى ساحتها وكدت
أموت جزعاً وأذوب دموعاً . لكننى وقفت ونزعت عنى
جبانة بنات جنسى وحللت جناحى من رُبط الضعف
والاستسلام وطرت فى فضاء الحب والحرية وأنا سميدة
الآن بقرب الرجل الذى خرج وخرجت شمعة واحدة
من يد الله قبيل ابتداء الدهور ، ولا توجد قوة فى هذا العالم
تستطيع أن تسلبنى سعادتى لأنها منبثقة من عناق روحين
يضمهما التفاهم ويظللها الحب ،
ونظرت الى السيدة وردة نظرة معنوية كأنها تريد أن

تخترق صدرى بعينها ل ترى تأثير كلامها فى عواطفى وأسمع
صدى صوتها من بين ضلوعى . لكننى بقيت صامتاً كيلاً
أوقفها عن الكلام . فقالت وقد قارن صوتها بين حرارة
الذكرى وحلاوة الخلاص والحرية « يقول لك الناس أن
وردة الهانى امرأة خائنة جعودة قد اتبعت شهوة قلبها
وهجرت الرجل الذى رفعها اليه وجعلها سيدة فى منزله .
ويقولون لك هى زانية عاهرة قد أتلفت بمقابضها القذرة
إكليل الزواج المقدس الذى صنفته الديانة واتخذت عوصاً
عنه إكليلاً وسخاً محبوكاً من أشواك الجحيم . وألقت عن
جسدها ثوب الفضيلة وارتدت بلباس الإثم والعار . ويقولون
لك أكثر من ذلك لأن أشباح جدودهم مازالت حية فى أجسادهم
فهم مثل كهوف الأودية الخالية يرجعون صدى أصوات
ولا يفهمون معناها . هم لا يعرفون شريعة الله فى مخلوقاته ،
ولا يفقهون مفاد الدين الحقيقى ، ولا يعامون متى يكون
الإنسان خاطئاً أو باراً ، بل ينظرون بأعينهم الضئيلة الى
ظواهر الأعمال ولا يرون أسرارها فيقتضون بالجهل ويدينون

بالعماوة ويستوى أمامهم المجرم والبريء، والصالح والشرير .
فويل لمن يقضى وويل لمن يدين . . أنا كنت زانية وخائنة
فى منزل رشيد نيمان لأنه جعلنى رفيقة مضجعه بحكم العادات
والتقاليد قبل أن تصيرنى السماء قرينة له بشريعة الروح
والمواطن . وكنت دنسة ودنيئة أمام نفسى وأمام الله
عندما كنت أشبع جوفى من خيراته ليشبع أمياله من
جسدى . أما الآن فصرت طاهرة نقية لأن ناموس الحب
قد حررنى . وصرت شريفة وأمينة لأننى أبطلت بيع جسدى
بالخبز وأياى بالملابس . نعم كنت زانية ومجرمة عندما كان
الناس يحسبوننى زوجة فاضلة واليوم صرت طاهرة وشريفة
وهم يحسبوننى عاهرة دنسة لأنهم يحكمون على النفوس من
ماتى الاجساد وقيسون الروح بمقاييس المادة »

والتفتت السيدة وردة نحو النافذة وأشارت يمينها
نحو المدينة ورفعت صوتها عن ذى قبل وقالت بلهجة
الاحتقار والاشمئزاز كأنها رأت بين الأزقة وعلى السطوح
وفى الأروقة أشباح المفاسد وخيالات الانحطاط « انظر

الى هذه المنازل الجميلة والقصور الفخمة العالية حيث يسكن
الاعنياء والاقوياء من البشر . فبين جدرانها المكسوة
بالحرير المنسوج تقطن الحياة بجانب الرياء ، وتحت سقوفها
المطلية بالذهب المذوب يقيم الكذب بقرب التصنع .
انظر وتأمل جيداً بهذه البنايات التي تمثل لك المجد والسؤدد
والسعادة فهي ليست سوى مغائر يختبئ فيها الذل والشقاء
والتعاسة . هي قبور مكسوة يتوارى فيها مكر المرأة
الضعيفة وراء كل العيون واحمرار الشفاه وتنحجب
في زواياها انانية الرجل وحيوانيته بامعان الفضة والذهب .
هي قصور تتشامخ جدرانها تهاً وافتخاراً نحو العلاء ولو
كانت تشعر بانفاس المكاره والغش السائلة عليها لتشققت
وتبعثرت وهبطت الى الحضيض . هي منازل ينظر اليها
القروي الفقير بأعين دامعة ولو علم بأنه لا يوجد في قلوب
سكانها ذرة من تلك المحبة العذبة التي تملأ صدر رفيقته
لابتسم مستهزئاً وعاد الى حقله مشفقاً «
وأمسكت السيدة وردة بيدي وقادتنى الى جانب

النافذة التي كانت تنظر منها نحو تلك المنازل والقصور
وقالت « تعال فأريك خفايا هؤلاء الناس الذين لم أرض أن
أكون مثلهم . انظر الى ذلك القصر ذى الاعمدة الرخامية
والجوانح النحاسية والنوافذ البلورية ففيه يسكن رجل غني
ورث ماله عن والده البخيل واكتسب أخلاقه من جوانب
الأزقة المفعمة بالمفاسد . وقد تزوج منذ عامين بامرأة لم
يعرف عنها شيئاً سوى أن لوالدها شرفاً موروثاً ومنزلة
رفيعة بين نبلاء البلاد . ولم ينقض شهر العسل حتى ملها
متضجراً وعاد الى مسامرة بنات الهوى وتركها في هذا
القصر مثماً يترك السكير جرة خمر فارغة . فبكت وتوجعت
لأول وهلة ثم تصبرت وسلت سلو من عرف خطأه وعامت
بأن دموعها هي أثمن من أن تهرق على خسارة رجل مثل
زوجها . وهي الآن مشغولة عن كل شيء بعشق فتى جميل
الوجه حلو الحديث تسكب في راحتيه عواطف قلبها وتملأ
جيوبه من ذهب بعلها الذي يغض الطرف عنها لأنها تغض
الطرف عنه . . . ثم انظر الى ذلك البيت المحاط بالحديقة

الغناء فهو مسكن رجل ينتمي الى أسرة شريفة حكمت
البلاد مدة طويلة وقد انخفض مقامها اليوم بتوزيع ثروتها
وانصراف أبنائها الى التواني والكسل . وقد اقترن هذا
الرجل منذ أعوام بفتاة قبيحة الصورة لكنها غنية جداً وبعد
استيلائه على ثروتها الطائلة نسي وجودها واتخذ له خليلة حسنة
وغادرها تهش أصابعها ندماً وتذوب شوقاً وحنيناً . وهي
الآن تصرف الساعات بتجعيد شعرها وتكحيل عينيها
وتلوين وجهها بالمساحيق والعقاقير وتزين قامتها بالأطالس
والحرير لملها تحظى بنظرة من أحد زائريها لكنها لا تحصل
إلا على نظرات شبحها في المرأة . . . ثم انظر الى ذلك
المنزل الكبير المزين بالنقوش والتماثيل فهو منزل امرأة
جميلة الوجه خبيثة النفس قد مات زوجها الاول فاستأثرت
بأمواله وأملأته ثم اختارت من بين الرجال رجلاً ضعيف
الجسم والارادة واتخذته بملالتحتفى باسمه من ألسنة الناس
وتدافع بوجوده عن منكراتها . وهي الآن بين مريديها
كالنحلة تمتص من الزهور ما كان حلواً ولذيذاً . وانظر الى

تلك الدار ذات الاروقة الوسيمة والقناطر البديعة فهي
مسكن رجل مادي الاميال كثير المشاغل والمطامع وله
زوجة كل ما في جسدها جميل وحسن وكل ما في روحها
حلو ولطيف وقد تمازجت في شخصها عناصر النفس بدقائق
الجسد مثلما تتآلف في الشعر نغمة الوزن برقة المعاني فهي
قد كونت لتعيش بالحب وتموت به . لكنها كالكثيرات
من بنات جنسها قد جنى عليها والدها قبل بلوغها الثامنة عشرة
من عمرها ووضع عنقها تحت نير الزينة الفاسدة وهي الآن
سقيمة الجسم تذوب كالشمع بحرارة عواطفها المقيدة.
وتضمحل على مهل كالرائحة الزكية أمام العاصفة . وتفنى حبا
بشيء جميل تشعر به ولا تراه وتصبو حنيناً الى معانقة الموت
لتتخلص من حياتها الجامدة وتحرر من عبودية رجل
يصرف الأيام بجمع الدنانير واليالي بمدى ويصر أسنانه
مجدفاً على الساعة التي تزوج فيها بامرأة عاقر لا نلد له ابناً
ليحيي اسمه ويرث ماله وخيراته . . . ثم انظر الى ذلك البيت
(٣ — الارواح المتمردة)

المنفرد بين البساتين فهو مسكن شاعر خيالي سامى الافكار
روحى المذهب له زوجة غليظة العقل خشنة الطباع تسخر
بأشعاره لأنها لا تفهمها وتستهنى بأعماله لأنها غريبة وهو
الآن مشغول عنها بحبة امرأة أخرى متزوجة تتوقد ذكاء
وتسيل رقة وتولد في قلبه النور بالعمطافها وتوحي اليه
الافوال الخالدة بابتساماتها وانظراتها «

وسكنت السيدة وردة هنية وقد جلست على مقعد
بجانب النافذة كأن نفسها قد تعبت من التجول في مخادع
تلك المنازل الخفية ثم عادت تقول بهدوء : « هذه هي
القصور التي لم أرض أن أكون من سكانها . هذه هي القبور
التي لم أرد أن أدفن حية طي لحودها . هؤلاء هم الناس الذين
تخلصت من عوائدهم وخلصت غي نير جامعتهم هؤلاء هم
المتزوجون الذين يقترون بالاجساد ويتنافرون بالروح ولا
شفيع بهم أمام الله سوى جهلهم ناموس الله . أنا لا أدينهم
الآن بل أشفق عليهم ولا أكرههم بل أكره استسلامهم
عفواً الى الرياء والكذب والخباثة . ولم أكشف أمامك خفايا .

قلوبهم وأسرار معيشتهم لأنني لا أحب الاغتياب والتميمة بل
فعلت ذلك لأريك حقيقة قوم كنت بالأمس مثلهم فنجوت.
وأبين لك معيشة بشر يقولون عني كل كلمة شريرة لأنني
خسرت صداقتهم لأربح نفسي وخرجت عن سبل خداعهم
المظلمة وحولت عيني نحو النور حيث الاخلاص والحق
والعدل. وقد نفوني الآن من جامعتهم وأنا راضية لأن البشر
لا ينفون إلا من تمرت روحه الكبيرة على الظلم والجور.
ومن لا يؤثر النفي على الاستعباد لا يكون حراً بما في الحرية
من الحق والواجب. أنا كنت بالأمس مثل مائدة شهية
وكان رشيد بك يقترب مني عند ما يشعر بحاجة الى الطعام
أما نفسا نا فتظلال بعيدتين كخادمين ذليلين. ولما رأيت المعرفة
كرهت الاستخدام وقد حاولت الخضوع لما يدعونه نصيباً
فلم أقدر لأن روحي أبت أن أصرف العمر كله راحة أمام
صنم مخيف أقامته الأجيال المظلمة ودعته الشريعة. فكسرت
قيودي لكنني لم ألقها عني حتى سمعت الحب منادياً ورأيت

النفس متأهبة للمسير ، نخرجت من منزل رشيد نعمان
خروج الأسير من سجنه تاركة خلفي الخلى والحلل والخدم
والمركبات وجئت بيت حبيبي الخالي من الرياش المملوء من
الروح وأنا عالمة بأنني لم أفعل غير الحق والواجب لأن مشيئة
السما ليست بأن أقطع جناحي يدي وارتمي على الرماد
حاجبة رأسي بساعدي ساكنة حُشاشتي من أجفاني قائلة
هذا نصيبي من الحياة . إن السماء لا تريد أن أصرف العمر
صارخة متوجعة في الليالي قائلة متى يجيء الفجر وعند ما يجيء
الفجر أقول متى ينقضي هذا النهار . إن السماء لا تريد أن يكون
الإنسان تمساً لأنها وضعت في أعماقه الميل إلى السعادة لأنه
بسعادة الإنسان يتمجد الله . . هذه هي حكايتي أيها الرجل
وهذا احتجاجي أمام السماء والأرض وأنا أردد وأترنم به
والناس يغلغلون آذانهم ولا يسمعون لأنهم يخشون ثورة
أرواحهم ويخافون أن تنزعزع أسس جامعتهم وتهبط على
رؤوسهم . هذه هي العقبة التي سرت عليها حتى بلغت قمة
سعادتي ولو جاء الموت واختطفني الآن لوقف روحى أمام

العرش الاعلى بلا خوف ولا وجل بل بفرح وأمل وانحلت
لفائف ضميري أمام الديان الاعظم وبانت نقية كالثلج لأنى
لم أفعل غير مشيئة النفس التى فصلها الله عن ذاته ولم أتبع
غير نداء القلب وصدى أغاني الملائكة . هذه هي روايتي
التى يحسبها سكان ييروت لعنة في فم الحياة وعلة في جسم
الهيئة الاجتماعية . ولكنهم سوف يندمون عند ما تنبه
الايام محبة المحبة في قلوبهم المظلمة مثلما تستنبت الشمس
الزهور من بطن الارض المملوء من بقايا الأموات فيقف
اذ ذاك عابر الطريق بجانب قبوري ويلقي عليه السلام قائلا
ههنا رقدت وردة الهاني التى حررت عواطفها من عبودية
الشرائع البشرية الفاسدة لتحيا بناموس المحبة الشريفة
وحولت وجهها نحو الشمس كيلا ترى ظل جسدها بين
الجماجم والاشواك »

ولم تنته السيدة وردة من كلامها حتى فتحت الباب ودخل
علينا فى نجيل القوام جميل الوجه تنسكب من عينيه أشعة

سحرية وتسيل على شفثيه ابتسامة لطيفة • فوقفت السيدة وردة وأمسكت بذراعه بالنعطاف كلي وقدمته إلي بعد أن لفظت اسمي مذيلاً بكلمة لطيفة واسمه مشفوعاً بنظرة معنوية فعرفت بأنه ذلك الشاب الذي أنكرت العالم وخالفت الشرائع والتقاليد من أجله • ثم جلسنا جميعاً صامتين لانشغال كل منا بمعرفة رأي الآخر فيه حتى اذا مرت دقيقة مملوءة من السكينة التي تستميل النفوس الى الملاء الأعلى نظرت اليهما وقد جلسا أحدهما بجانب الآخر فرأيت ما لم أراه قط وعرفت بالحنة معنى حكاية السيدة وردة وأدركت سر احتجاجها على الهيئة الاجتماعية التي تضطهد الافراد المتمردين على شرائعها قبل ان تستفحص دواعي تمردهم . رأيت روحاً واحدة سماوية متمثلة أمامي بجسدين يحملهما الشباب ويسربلها الاتحاد وقد وقف بينهما اله الحب باسطاً جناحيه ليحميها من لوم الناس وامنيتهم . وجدت التفاهم الكلي منبعثاً من وجهين شفافين ينيرهما الاخلاص ويحيط بهما الطهر : وجدت لأول مرة

في حياتي طيف السعادة منتصباً بين رجل وامرأة يُرذِلُهُما
الدينُ وتنبذهما الشريعة .

وبعد هنيهة وقفت وودعتها مظهرًا بغير الكلام
تأثيرات نفسي وخرجت من ذلك المنزل الحقيِر الذي جعلته
المواطن هيكلاً للحب والوفاق وسرت بين تلك القصور
والمنازل التي اظهرت لي خفاياها السيدة وردة مفكراً
بحديثها وبكل ما ينطوي تحته من المبادئ والنتائج . لكنني
لم ابلغ أطراف ذلك الحلي حتى تذكرت رشيد بك نعمان
فتمثلت لبصيرتي لوعة قنوطه وشقائه فقلت في ذاتي (هو
تمس مظلوم ولكن هل تسمعه السماء اذا وقف أمامها متظلماً
شاكياً وردة الهاني ؟ هل جنت عليه تلك المرأة عندما
تركته واتبعت حرية نفسها أم هو الذي جنى عليها عندما
أخضع جسدها بالزواج قبل ان يستميل روحها بالحب ؟ فمن
هو الظالم من الاثنين ومن هو المظلوم ؟ ومن هو المجرم ومن
هو البريء ياترى ؟) ثم عدت قائلاً لذاتي مستفتياً أخبار
الايام مستقصياً حوادثها كثيراً ما أباح الغرور للنساء أن

يترك رجالهن الفقراء ويتعلقن بالرجال الاغنياء لأن شغف المرأة بهرجة الملابس ونعومة العيش يُعمي بصيرتها ويقودها إلى العار والانحطاط. فهل كانت وردة الهاني مغرورة وطامعةً عندما خرجت من قصر رجل غني مفعم بالحلى والحلل والرياش والخدم وذهبت الى كوخ رجل فقير لا يوجد فيه سوى صف من الكتب القديمة ؟ وكثيراً ما يُميت الجهل شرف المرأة ويحیی شهواتها فتترك بعلمها مللاً وتضجر وتطلب ملذات جسدها بقرب رجل آخر أكثر منها انحطاطاً وأقل شرفاً. فهل كانت وردة الهاني جاهلة راعبة بالملذات الجسدية عندما أعلنت استئلالها على رؤوس الأشهاد وانضمت الى فتي روجي الأميال. وقد كان بإمكانها أن تشبع حواسها سرّاً في منزل زوجها من هيام الفتیان الذين يستमितون ليكونوا عبيد جمالها وشهداء غرامها ؟ وردة الهاني كانت امرأة تمسه فطلبت السعادة فوجدتها وعانقتها وهذه هي الحقيقة التي تحتقرها الجامعة الانسانية وتنفيها الشريعة .

همست تلك الكلمات في مسامع الاثير ثم قلت

مستدركا ولكن أيسوغ للمرأة ان تشتري سعادتها بتعاسة
بعلها ؟ فأجابتنى نفسى قائلة وهل يجوز للرجل أن يستعبد
عواطف زوجته ليبقى سعيداً ؟

*
* *

وظلمت سائر أوصوت السيدة وردده يتموج فى مسامعى
حتى بلغت اطراف المدينة والشمس قد مالت الى الغروب
وابتدأت الحقول والبساتين تتشح بنقاب السكينة والراحة
والطيور تنشد صلاة المساء فوقفت متأملات ثم نهدت قائلاً
امام عرش الحرية تفرح هذه الاشجار بمداعبة النسيم وأمام
هيبتها تبهج بشماع الشمس والقمر . . على مسامع الحرية
تتناجى هذه المصافير وحول أذيا لها ترفرف بقرب السواقي .
فى فضاء الحرية تسكب هذه الزهور عطر أنفاسها وأمام
عينها تبتسم لبحىء الصباح . . كل ما فى الارض يحيا بناموس
طبيعته ومن طبيعة ناموسه يستمد مجد الحرية وأفرانها ...
أما البشر فمحرومون من هذه النعمة لأنهم وضعوا لأرواحهم
الالهية شريعة عالمية محدودة . وسنوا لأجسادهم ونفوسهم

قانوننا واحداً قاسياً. واقاموا لميولهم وعواطفهم سجنًا ضيقًا
مخيفًا. وحفروا القلوبهم وعقولهم قبراً عميقاً مظلمًا. فاذا ما
قام واحد من بينهم وانفرد عن جامعتهم وشرائعهم قالوا هذا
متمرد شرير خليق بالنقي، وساقط دنس يستحق الموت...
ولسكن هل يظل الانسان عبداً لشرائعه الفاسدة إلى انقضاء
الدهر أم تحرره الأيام ليحيا بالروح وللاروح؟ أيبقى الانسان
محددًا بالتراب أم يحول عينيه نحو الشمس كيلا يرى ظل
جسده بين الأشواك والجماجم؟

صراخ القبور

١

تربع الامير على منصة القضاء فجلس عقلاء بلاده عن
يمينه وشماله وعلى وجوههم المتجمدة تنعكس أوجه الكتب
والأسفار . وانتصب الجند حوله ممتشقين السيوف رافعين
الرماح . ووقف الناس أمامه بين متفرج أتى به حب
الاستطلاع ومترب ينتظر الحكم في جريمة قربه وجميعهم قد
أحنوا رقابهم وخشعوا ببصائرهم وأمسكوا أنفاسهم كأن
في عيني الأمير قوة توغز الخوف وتوحي الرغبة الى نفوسهم
وخلوبهم . حتى اذا ما اكتمل المجلس وأزفت ساعة الدينونة
رفع الأمير يده وصرخ قائلاً « احضروا المجرمين أمامي واحداً
واحداً وأخبروني بذنوبهم ومعاصيهم » . ففتح باب السجن
ويانت جدران المظلمة مثلما تظهر حنجرة الوحش الكاسر

عند ما يفتح فكليه متثائباً . وتصاعدت من جوانبه قلقة:
القيود والسلاسل متآلفة مع أنين الجساء ونحيبهم . فحول
الحاضرون أعينهم وتطاولت أعناقهم كأنهم يريدون مسابقة
الشريمة بنواظرهم ليروا فريسة الموت خارجة من أعماق
ذلك القبر

وبعد هنيهة خرج من السجن جنديان يقودان فتى
مكتوف الساعدين يتكلم وجهه العابس وملاحه المنقبضة
عن عزة في النفس وقوة في القلب . وأوقفاه وسط المحكمة
وتراجما قليلا الى الوراء . فأحذق به الأمير دقيقة ثم سأل
قائلا « ماجرمة هذا الرجل المنتصب أمامنا برأس مرفوع
كانه في موقف الفخر لا في قبضة الدينونة »
فأجابه رجل من أعوانه قائلا

« هو قاتل شريير قد اعترض بالأمس قائداً من فواد
الامير وجندله صريماً اذ كان ذاهباً بمهمة بين القرى وقد
قبض عليه والسيف المغمد بدماء القتيل ما زال مشهوراً
في يده »

فتحرك الأمير غضباً فوق عرشه وتطايرت سهام الحنق
من عينيه وصرخ بأعلى صوته قائلاً : « ارجعوه الى الظلمة
وأثقلوا جسده بالقيود وعند ما يجيء فجر الغد اضربوا عنقه
بحد سيفه ثم اطرحوا جثته في البرية لتجردها العقبان
والضواري وتحمل الرياح رائحة تنانيتها الى أنوف أهله ومحبيه »
أرجعوا الشاب الى السجن والناس يتبعونه بنظرات
الاسف والتنهيدات العميقة لانه كان فتى في ربيع العمر
حسن المظاهر قوي البنية .

وخرج الجنديان ثانية من السجن يقودان صبية جميلة
الوجه ضعيفة الجسد قد وشح معانيها اصفرار اليأس والقنوط
وغمرت عينيها العبرات وألوت عنقها الندامة والحسرة .
فنظر اليها الأمير قائلاً « وما فعلت هذه المرأة
المهزولة الواقفة أمامنا وقوف الظل بجانب الحقيقة ؟ »
فأجابه أحد الجنود قائلاً « هي امرأة عاهرة قد فاجأها
بعلمها ليلا فوجدتها بين ذراعي خليلها فأسلمها للشرطة بعد
أن فرأ أليفها هارباً »

فأحرق الأميرُ بها وهي مطرقة خجلاً ثم قال بشدة
وقساوة « ارجعوها الى الظلمة ومددوها على فراش من
الشوك لعلها تذكر المضجع الذي دنسته بعيها واسقوها
اخل ممزوجاً بنقيع العلقم عساها تذكر طعم القبل المحرمة .
وعند مجيء الفجر جروها عارية الى خارج المدينة وارجموها
بالحجارة واركوا جسدها هناك لكي تتنعم بلعنه الذئاب
وتنخر عظامه الديدان والحشرات »

توارت الصبية بظلمة السجن والحاضرون ينظرون
اليها بين معجب بعدل الأمير ومتأسف على جمال وجهها
الكثير ورقة نظراتها المحزنة .

وظهر الجنديان ثالثة يقودان كهلاً ضعيفاً يسحب
ركبتيه المرتعشتين كأههما خرقتان من أطراف ثوبه البالي
ويلتفت جزءاً الى كل ناحية ومن نظراته الموجهة تنبعث
خيالات البؤس والفقر والتعاسة .

فالتفت الأمير نحوه وقال بلهجة الاشتمزاز « وما ذنب
هذا القذر الواقف كاليت بين الاحياء »

فأجابه أحد الجنود قائلاً « هو لص سارق قد دخل
الدير ليلاً فقبض عليه الرهبان الاتقياء ووجدوا طي أثوابه
آنية مذابحهم المقدسة »

فنظر إليه الأمير نظرة النسر الجائع إلى عصفور
مكسور الجناحين وصرخ قائلاً « أنزلوه إلى أعماق الظلمة
وكبلوه بالحديد وعند مجيء الفجر جروه إلى شجرة عالية
واشنقوه بحبل من الكتان وأتركوا جسده معلقاً بين الأرض
والسماء فتنتثر العناصر أصابعه الالئمة ثراً وتذري الرياح
أعضاءه تتفا »

أرجعوا اللص إلى السجن والناس يهمسون بعضهم
في آذان بعض قائلين « كيف تجرأ هذا الضعيف الكافر
على اختلاس آنية الدير المقدسة »

ونزل الأمير عن كرسي القضاء فاتبعه العقلاء
والمتشرعون وسار الجند خلفه وأمامه وتبدد شمل المتفرجين
وخلا ذلك المكان إلا من عويل المسجونين وزفرات
القناطين المتمايلة كالخيلات على الجدران ،

جرى كل ذلك وأنا واقف هناك وقوف المرأة أمام
الاشباح السائرة مفكراً بالشرائع التي وضعها البشر للبشر ،
متأملاً بما يحسبه الناس عدلاً ، متعمقاً بأسرار الحياة باحثاً
عن معنى الكيان . حتى اذا ماتت ضمت أفكارها مثلاً
تتوارى خطوط الشفق بالضباب خرجت من ذاك المكان
قائلاً لذاتي الأعشاب تمتص عناصر التراب . والخروف يلتهم
الأعشاب . والذئب يفترس الخروف . ووحيد القرن يقتل
الذئب والأسد يصيد وحيد القرن . والموت يفنى الأسد .
فهل توجد قوة تتغلب على الموت فتجعل سلسلة هذه المظالم
عدلاً سرمدياً ! . . . أتوجد قوة تحول جميع هذه الأسباب
الكريهة الى نتائج جميلة ؛ أتوجد قوة تقبض بكفها على
جميع عناصر الحياة وتضمها الى ذاتها مبتسمة منما يرجع
البحر جميع السواقي الى أعماقه مترنماً ؛ أتوجد قوة توقف
القاتل والمقتول والزانية وخليتها والسارق والمسروق منه
امام محكمة أسمى وأعلى من محكمة الأمير ؟

وفي اليوم الثاني خرجت من المدينة وسرت بين الحقول
حيث تبيع السكينة للنفس ما تسره النفس ، ويميت طهر
الفضاء جراثيم اليأس والقنوط التي تولدها الشوارع الضيقة
والمنازل المظلمة . ولما بلغت طرف الوادي التفت فاذا
بأجواق كثيرة من العقبان والغربان والنسور تتطاير تارة
وتهبط طوراً وقد ملأت الفضاء بنعابها وصفيرها وحفيف
أجنحتها . فتقدمت قليلاً مستطلعةً فرأيت أمامي جثة رجل
معلقة على شجرة عالية ، وجثة امرأة عارية مطروحة بين
الحجارة التي رجمت بها ، وجثة فتى غارقة بالدماء المخبولة
بالتراب وقد قُصل رأسها عنها .

وقفت وهول المشهد يغشى بصيرتي بنقاب كثيف
مظلم ونظرت فلم أَرَ سوى خيال الموت المريع منتصباً بين
الجثث الملطخة بالدماء . وأصغيت فلم أسمع غير عويل العدم
ممزوجاً بنعاب الغربان الحائمة حول فريسة شرائع البشر
(٤ - الأرواح المتمرده)

ثلاثة من أبناء آدم كانوا بالامس على أحضان الحياة
فأصبحوا اليوم في قبضة الموت
ثلاثة أساؤا يعرف البشر الى التاموس فمدت الشريعة
العمياء يدها وسحقتهم بقساوة
ثلاثة جعلهم الجهل مجرمين لأنهم ضعفاء فجعلتهم
الشريعة أمواتا لأنها قوية .
رجل فتك برجل آخر فقال الناس هذا قاتل ظالم وعند
ما فتك به الأمير قال الناس هذا أمير عادل .
ورجل حاول أن يسلب الدير فقال الناس هذا لص
شرير . وعند ما سلبه الأمير حياته قالوا هذا أمير فاضل .
وامرأة خانت بعلمها فقال الناس هي زانية عاهرة .
ولكن عند ما سيرها الأمير عارية ورجها على رؤوس
الأشهاد قالوا هذا أمير شريف .
سفك الدماء محرّم . ولكن من حمله للأمير ؟
سلب الأموال جريمة . ولكن من جعل سلب
الأرواح فضيلة ؟

خيانة النساء قبيحة . ولكن من صير رجماً الأجساد
جميلاً ؟

أنتقابل الشرّ بشرٍّ أعظم ونقول هذه هي الشريعة .
ونقاتل الفساد بفساد أعم ونهتف هذا هو الناموس .
ونغالب الجريمة بجريمة أكبر . ونصرخ هذا هو العدل ؟
أما صريح الأمير عدوّاً في غابر حياته ؟ أما سلب مالا
أو عقاراً من أحد تابعيه الضعفاء ؟ أما راود امرأة جميلة عن
نفسها ؟ هل كان معصوماً عن هذه المحرمات فجاز له اعدام
القاتل وشنق السارق ورجم الزانية ؟

ومن هم الذين دفعوا هذا اللص على الشجرة ؟ أملائكة
نزلوا من السماء أم رجال يفتصبون ويسرقون كل ما تصل
اليه أيديهم ؟

ومن قطع رأس هذا القاتل ؟ أنبياء هبطوا من العلاء
أم جنود يقتلون ويسفكون الدماء أينما حلوا ؟
ومن رجم هذه الزانية ؟ أنسّاك طاهرون أتوا من

صوامعهم أم بشرٌ يأتون المنكرات ويفعلون الرذائل مختبئين
بستائر الظلام ؟

الشريعة — وما هي الشريعة ؟ من رآها نازلة مع نور
الشمس من أعماق السماء ؟ وأي بشري رأى قلب الله فعلم
مشيئته في البشر . وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة
بين الناس قائلين « احرموا الضعفاء نور الحياة ، وافنوا
الساقطين بحمد السيف ، ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد »
وظلت هذه الأفكار تنزاحم على فكري وتساهم
عواطفي حتى سمعت وطء أقدام قريبة مني فنظرت وإذا بصبيبة
قد ظهرت من بين الاشجار واقتربت من الجثث الثلاث
متحذرة متلفتة بخوف الى كل ناحية . حتى اذا ما رأت رأس
الفتى المقطوع صرخت جزعاً وركعت بجانبه وطوقته بزنها
المرتجفتين ، وأخذت تستفرغ الدموع من عينيها ، وتلامس
شعره الجمدي بأطراف أصابعها وتنتحب بصوت عميق جارح
خارج من صميم الكبد ، ولما أنهكها البكاء وغلبتها الحسرات ،
أسرعت تحفر التراب بيديها حتى اذا ما حفرت قبراً وسيعاً

وجرت إليه الفتى المصروع ومددته على مهل موجه
ووضعت رأسه المضرج بالدماء بين كتفيه وبعد أن غمرته
بالتراب غرست نصل السيف الذي قطع عنقه على قبره ،
واذ همت بالانصراف تقدمت نحوها فأجفلت وارتعشت
خوفاً ثم أظرفت والدمع السخين يتساقط كالطر من مقلتيها
وقالت متهددة « اشكني إلى الأمير إن شئت نغير لي أن
أموت وألحق بمن خلصني من قبضة الغار من أن أترك
جسده طعاماً لقشاعم الطير والوحوش الكواسر » فأجبتها
قائلاً . لا تخافي مني أيتها المسكينة . فأنا قد ندبت حظ
فتاك قبلك بل خبريني كيف أنقذك من قبضة الغار »

فقالت والغصص تقطع صوتها « جاء قائد الأمير إلى
حقولنا ليتقاضى الضرائب ويجمع الجزية ولما رأى نظر إلى
نظرة استحسان مخيفة ثم فرض ضريبة باهظة على حقول والدي
الفقير يعجز الغني عن دفعها فقبض عليّ ليقبضني قهراً إلى
صرح الأمير بدلاً من الذهب فاسترحمته بدموعي فلم يحفل
واستحلفته بشيخوخة والدي فلم يرحم فصرخت مستغيثة

برجال القرية فجاء هذا الشاب وهو خطيبي وخلصني من
بين يديه القاسيتين فاستشاط غضباً وهم أن يفتك به فسبقه
الشاب وامتشق سيفاً قديماً معلقاً على الحائط وصرعه به
مدافعاً عن حياته وعن عرضي ، ولسكبر نفسه لم يفر هارباً
كالقتلة المجرمين بل لبث واقفاً بقرب جثة القائد الظلوم حتى
جاء الجند وساقوه إلى السجن مكبلاً بالقيود ،

قالت هذا ونظرت إليّ نظرة تذيب الفؤاد وتثير
الشجون وولّت مسرعة ورنات أصوتها الموحمة تولد بين
تموجات الأثير اهتزازاً وارتعاشاً

وبعد هنيهة نظرت فرأيت فتى في ربيع العمر يتقدم
سائراً وجهه باثوابه حتى اذا ما بلغ جثة المرأة الزانية وقف
بقربها وخلع عباءته وستر بها اعضاءها العارية وأخذ يحفر
الأرض بخنجر كان معه ثم حملها بهدوء وواراها التراب ساكباً
مع كل حفنة قطرة من أجفانه. ولما انتهى من عمله جنى بعض
الزهور النابتة هناك ووضعها على القبر منحني الرأس منخفض
الطرف . واذا هم بالذهاب أوقفته قائلاً « مانسبة هذه المرأة

الساقطة إليك حتى سمعت مخالفاً ارادة الامير ومخاطراً بحياتك
لكي تحمي جسدها المروض من طيور السماء الجوارح »
فنظر إليّ وأجفأه المقرحة من البكاء والسهر تتكلم
عن شدة حزنه ولوعته وبصوت مخنوق ترافقه التهنيدات
الالمية قال « أنا هو ذلك الرجل التمس الذي رجمت من
أجله — أحببتها وأحبتي مذ كنا صغيرين نلعب بين المنازل .
نمونا ونما الحب معنا حتى صار سيداً قوياً نخدمه بمواطف
قلبيننا فيستميلنا إليه ونهابه بسرائر روحينا فيضمننا الى صدره .
ففي يوم وقد كنت غائبا عن المدينة زوجها والدها كرهاً من
رجل تكرهه ولما رجمت وسممت بالخبر تحولت أيامي الى
ليل طويل حالك وصارت حياتي نزاعاً مرأمتواصلاً . وبقيت
أصارع عواطفني وأغالب ميول نفسي حتى تغلبت علي وقادتني
مثالما يقود البصير ضريراً أعمى . فذهبت الى حبيبتي سرّاً
وأقصى مرأى أن أرى نور عينيها وأسمع نغمة صوتها فوجدتها
منفردة تنذب حظها وترثي أيامها فجلست والسكينة حديثنا
والعفاف ثالثنا — ولم تمر ساعة حتى دخل زوجها فجأة ولما

رأى أنى أوعزت إليه نيأته القذرة فقبض على عنقها الأملس .
بكفيه القاسيتين وصرخ بأعلى صوته (تعالوا وانظروا الزانية
وعشيقها) فهرول الجيران ثم جاء الجند مستطلعين الخبر
فأسلمها إلى أيديهم الخشنة فاقتادوها محلولة الشعر ممزقة
الأثواب . أما أنا فلم يمسنى أحد بضرر لأن الشريعة العنفاء
والتقاليد الفاسدة تعاقب المرأة اذا سقطت ، أما الرجل
فتساعفه »

وعاد الشاب نحو المدينة سائراً وجهه بأثوابه ولبثت أنا
ناظراً متأملاً متنهداً وجثة اللاس المشنوق ترتجف قليلاً كلما
هز الهواء أغصان الشجرة كأنها تسترحم بحرا كها أرواح
الفضاء تهبط وتمدها على صدر الأرض بجانب قتيل المروءة
وشهيدة الحب

وبعد ساعة ظهرت امرأة ضعيفة الجسم ترتدى خرقة
بالية ووقفت بقرب المشنوق تقرع صدرها باكياً ثم تسلقت
الشجرة وقضمت حبل الكتان بأسنانها فسقط الميت على
الأرض سقوط الثوب البليل . فنزلت المرأة وحفرت قبراً

بجانب القبرين ووضعته فيه : وبعد ان غمرته بالتراب أخذت
قطعتين من الخشب وصنعت منهما صليبا، وغرسته فوق
رأسه . ولما تحولت نحو الوجهة التي جاءت منها أوقفها قائلا
« ما غرّك أيتها المرأة فجئت تدفين لصا سارقا »

فنظرت اليّ بعينين غارقتين مكنحولتين بأشباح
الكتابة والشقاء وقالت « هو زوجي الصالح ورفيقي الحنون
ووالد أطفالي . خمسة أطفال يتضورون جوعا أكبرهم في الثامنة
وأصغرهم رضيع لم يفطم ... لم يكن زوجي لصا بل كان
زارعا يفلح أرض الدير ويستغلها ولا يحصل من الرهبان الا
على رغيف تتقاسمه عند المساء ولا تبقى منه لقمة الى
الصباح ... مذ كان فتى وهو يسقى بعرق جبينه حقول
الدير ويزرع عزم ساعديه في بساينه . ولما ضعف وانتهت
أعوام العمل قواه وراودت الأمراض جسده بعدوه قائلين
(لم يعد الدير محتاجا اليك فاذهب الآن وعند ما يشب أبناءك
ابعثهم إلينا لكي يأخذوا مكانك في الحقل) فبكى وأبكاني
واسترحمهم باسم يسوع واستحلفهم بالملائكة والقديسين

فلم يرحموه ولم يشفقوا عليه وعليّ وعلى صغارنا المرأة الجائعين.
فذهب يطلب عملاً في المدينة وعاد مطروداً لأن سكان
تلك القصور لا يستخدمون إلا الفتيان الأقوياء. ثم جلس
على قارعة الطريق مستمطياً فلم يحسن الناس إليه بل كانوا
يمرون به قائلين (الصدقة لا تجوز على مغلوب التواني
والكسل) ففي ليلة وقد برح العوز بنا حتى صار أطفالنا
يتلون جوعاً على التراب. والرضيع بينهم يمص ثديي ولا
يجد لبناً. تغيرت ملامح زوجي وذهب مستتراً بالظلام
ودخل قبواً من أقبية الدير حيث يخزن الرهبان غلة الحقول
وخمر الكروم وحمل زنبيلاً من الدقيق على ظهره وهم بالرجوع
إلينا. لكنه لم يسر بضع خطوات حتى استيقظ القسس من
رقادهم وقبضوا عليه وأسمعوه ضرباً وشتماً وعند ما جاء الصباح
أسلموه إلى الجند قائلين (هولص شرير جاء لكي يسرق آنية
الدير الذهبية) فاقتاده الجند إلى السجن ثم إلى المشنقة ليملاًوا
أجواف العقبان من جسده لأنه حاول أن يملأ أجواف صغاره
الجياع من فضلات الغلة التي جناها باتمابه إذ كان خادماً للدير.

وذهبت المرأة الفقيرة ولكلامها المتقطع أشباح محزنة
تتصاعد وتتسارع الى كل ناحية كأنها أعمدة من الدخان
يتلاعب بها الهواء

* *

وقفت بين القبور الثلاثة وقفة مؤبنة ارتج عليه وانعقد
لسانه لوعة فانسكب دمه متكلماً عن عواطفه . وحاولت
التفكر والتأمل فمصتني نفسي لان النفس كالزهرة تضم
أوراقها أمام الظلمة ولا تعطي أنفاسها لخيالات الليل .
وقفت ومن دقائق تراب تلك القبور ينبثق صراخ
التظلم انبثاق الضباب من خلالي الأودية ويتموج حول
مسامعي ليوحى اليّ الكلام .
وقفت ساكناً ولو فهم الناس ما تقوله السكينة
لكانوا أقرب إلى الآلهة منهم الى كواسر الغاب .
وقفت متنهداً ولو لامست شمعات تنهياتي أشجار
ذلك الحقل لتحركت وتركت أماكنها وزحفت كتائب
كتائب وحاربت بقضبانها الأمير وجنوده وهدمت

بجذوعها جذران الدير على رؤوس رهبانه
وقفت ناظراً ومع نظراتي تنسكب حلاوة الشفقة
ومرارة الحزن على جوانب تلك القبور الجديدة — قبر
فتى دافع بحياته عن شرف عذراء ضعيفة وأقذها من بين
أظافر ذئب كاسر فقطعوا عنقه جزاء شجاعته . وقد أغمدت
تلك الصبية سيفه بتراب قبره ليبقى هناك رمزاً يتكلم
أمام وجه الشمس عن مصير الرجولة في دولة الحيف
والغباوة — وقبر صبية لامس الحب نفسها قبل أن تفتصب
المطامع جسدها فرجت لأن قلبها أبى الا أن يكون أميناً
حتى الموت . وقد وضع حبيبها باقة من زهور الحقل فوق
جسدها الهامد لتتكلم بذبولها وفنائها البطيء عن مصير
النفوس التي يقدسها الحب بين قوم أعمتهم المادة وأخرسهم
الجهل — وقبر فقير بأئس أوهت ساعديه حقول الدير
فطرده الرهبان ليستعوضوا عنها بسواعد غيره . فطلب
الخبز لصغاره بالعمل فلم يجده . ثم رجاه بالتسول فلم ينله ،
وعند ما دفعه اليأس الى استرجاع قليل من الغلة التي جمعها

باتعابه وعرق جبينه قبضوا عليه وفتكوا به . وقد وضعت
أرملته صليبا على قبره ليستشهد في سكينة الليل نجوم
السماء على ظلم رهبان يحولون تعاليم الناصري الى سيوف
يقطعون بها الرقاب ويمزقون بمحدودها السنينة أجساد
المساكين والضعفاء

وتوارت الشمس اذ ذاك وراء الشفق كأنها ملّت
متاعب البشر وكرهت ظلمهم . وابتدأ المساء يحبك من
خيوط الظل والسكون نقابا دقيقا ليلقيه على جسد الطبيعة .
فرفعت عيني إلى العلاء وبسطت يدي نحو القبور وما عليها
من الرموز وصرخت بأعلى صوتي « هذا هو سيفك أيتها
الشجاعة فقد أغمد بالتراب . وهذه هي زهورك أيها الحب
فقد لفحتها النيران . وهذا هو صليبك يا يسوع الناصري
فقد غمرته ظلمة الليل »

مضجع العروس^(١)

خرج العريس والعروس من الهيكل يتبعهما المهنئون
الفارحون وتتقدمهما الشموع والمصابيح . ويسير حولهما
الفتيان المترنمون بالأهازيج والصبايا المنشدات أغاني السرور .
بلغ الموكب منزل العريس المزدان بالرياش الثمينـة
والأواني المتامعة والرياحين العطرة فاعتلى العروسان مقعداً
مرتفعاً وجلس المدعوون على الطنافس الحريرية والكراسي
المخملية حتى غُصت تلك القاعة الوسيعة بأشكال الناس .
وسعى الخدام بآنية الشراب فتصاعدت رنات الكؤوس
متآلفة مع هتاف الغبطة ، ثم جاء الموسيقيون وجلسوا
يسكرون النفوس بأنفاسهم السحرية ويبطنون الصدور
بالحنان المنسوجة مع همس أوتار العود وتهيدات الناس
وحفيف الدفوف .

(١) هذد حادثة جرت في شمال لبنان في النصف الأخير من
الجيل التاسع عشر وقد أخبرني بها سيدة فاضلة من تلك النواحي .
تنسب الى أحد أشخاص الحكاية .

ثم قامت الصبايا برقصن وتمايلن بقامات تلاحق
مقاطيع اللحن مثلما تنابع الأغصان اللينة مجارى هبوب
النسيم. وتنثنى طيات أثوابهن الناعمة كأنها سحب بيضاء
يداعبها شعاع القمر. فشخصت إليهن الأبصار وسجدت
لهن الرؤوس وعانقتهن أرواح الفتيان وتقطرت لجمالهن
سراثر الشيوخ. ثم مال الجميع يستزيدون من الشراب
ويعمرون أميالهم بالخمور. فنمت الحركة وعلت الأصوات
وسادت الحرية وتوارت الرزاة وتضعضت الأدمغة
وتلهبت النفوس واضطربت القلوب وأصبح ذلك المنزل
بكل ما فيه كقيثارة مقطعة الأوتار في يد جنية غير منظورة
تضرب عليها بعنف وتولد منها أنغاماً جامعة بين التناسق
والالتباس: فهنا فتى يبوح بسراثر حبه لفتاة أولاها الجمال
تيهاً ودلالاً. وهناك شاب يستعد لمحادثة حسناء مستحضراً
إلى حافظته أعذب الأنفاظ وأرق المعاني. وهناك كهل
يجرع الكأس وراء الكأس ويطلب بلجاجة إلى المنشدين.
إعادة أغنية ذكرته بأيام صباه. في هذه القرنة امرأة تغامز

بأطراف أجفانها رجلا ينظر بمودة الى سواها . وفي تلك
الزاوية سيدة قد يبض الشيب مفرقها تنظر مبتسمة نحو
الصبايا لتنتقي منهن عروسة لوجيدها . وبجانب تلك النافذة
زوجة قد اتخذت سكر حليلها فرصة فاقتربت من خليلها
وجميعهم غارقون في بحر من الحزن والغزل مستسلمون الى
تيار الغبطة والسرور متناسون حوادث الأمل . منصرفون
عن ما آتى الغد منعكفون على استثمار دقائق الحاضر .
كان يجري كل ذلك والعروس الجميلة تنظر بعينين
كثيبتين الى هذا المشهد مثلما ينظر الأسير اليائس الى
جدران سجنه السوداء . وتتلقت بين الآونة والأخرى نحو
زاوية من زوايا تلك القاعة حيث جلس فتى في العشرين من
عمره منفرداً عن الناس المغبوطين انفراد الطائر الجريح عن
سربه ، مبكلاً زنديه على صدره كأنه يحول بهما بين قلبه والفرار
محدقا بشيء غير منظور في فضاء تلك القاعة كأن ذاته المعنوية
قد انفصلت عن ذاته الحسية وسبحت في الخلاء متبعة
أشباح الدجى .

انتصف الليل وتعاظمت غبطة الجماعة حتى صارت
ثورة ، واختمرت أدمغتهم حتى تلجلجت ألسنتهم ، فقام
العريس من مكانه وهو كهل خشن المظاهر وقد تغلب السكر
على حواسه وطاف يتكلف اللطف والرفقة بين الناس .
في تلك الدقيقة أو مأت العروس إلى صبية أن تقترب
منها فاقتربت وجلست بجانبها وبعد أن تلفت العروس إلى
كل ناحية تلفت جازع يريد أن يفشى سرّاً خفيّاً هائل لثرت
إلى الصبية وهمست في أذنها هذه الكلمات بصوت مرتعش :
« أستحلفك يارفيقتي بالمعاطف التي ضمت نفسي نامد كنا
صغيرتين . أستحلفك بكل ما هو عزيز لديك في هذه الحياة .
استحلفك بمخبات صدرك . استحلفك بالحب الذي يلامس
أرواحنا ويجعلها شعاعا . استحلفك بأفراح قلبك وأوجاع
قلبي أن تذهبي الآن إلى سليم وتطلبي إليه أن ينزل خفية إلى
الحديقة وينتظرني هناك بين أشجار الصفصاف . تضرعي
عني ياسوسان حتى يجيب طلبي . ذكره بالأيام الغابرة ،
توسلي إليه باسم الحب ، قولي له هي تمسة عمياء ، قولي هي
(٥ - الأرواح المتمردة) .

مائة تريد أن تفتح قلبها أمامك قبل أن يكتنفها الظلام ،
قولى له هي هالكة شقية تريد أن ترى نور عينيك قبل أن
تختطفها نار الجحيم ، قولى له هي خاطئة تريد أن تعترف
بذنوبها وتلتمس عفوك ، أسرعى اليه وابتهى عنى أمامه ولا
تخافى مراقبة هؤلاء الخنازير لأن الخمر قد سدت آذانهم
وأعمت بصائرهم »

فقامت سوسان من جانب العروس وجلست بقرب
سلم الكتيب المنفرد وجده وأخذت تستعطفه هامسة
في أذنه كلمات رفيقتها ودلائل الود والاخلاص بادية على
ملاحظها وهو منحني الرأس يسمع ولا يجيب ببنت شفة .
حتى إذا ما انتهت من كلامها نظرت إليها نظرة ظامئ يرى
الكأس في قبة الفلك وبصوت منخفض تخاله آتيا من أعماق
الأرض أجابها قائلا « سوف أنتظرها في الحديقة بين أشجار
الصفصاف »

قال هذه الكلمات وقام من مكانه وخرج الى الحديقة
ولم تمض بضعة دقائق حتى قامت العروس واتبعته

مختلصة خطواتها بين رجال فتنهم ابنة الكروم ونساء
أشغلت قلوبهن صباية الفتیان . ولما بلغت الحديقة الموشاة
بأثواب الليل أسرعت ملتفتة الى الوراء . ومثل غزال جازع
هارب الى كناسه من الذئاب الخاطفة تقدمت نحو أشجار
الصفصاف حيث وقف ذلك الفتى . ولما رأت نفسها بجانبه
ترامت عليه وطوقت عنقه بزنديها وأحدقت بعينه ثم قالت
والألفاظ تتسارع من شفيتها بسرعة الدموع من أجفانها
« اسمعني يا حبيبي . اسمعني جيداً . ها قد ندمت على جهالتى
وتسرعى . قد ندمت يا سليم حتى سحقت الندامة كبدي .
أنا أحبك ولا أحب سواك وسوف أحبك الى منتهى العمر ،
قد أخبرونى بأنك سلوتنى وهجرتنى وتعلقت بهوى غيرى
أخبرونى بكل ذلك يا سليم وسمموا قلبي بالسنتهم ومزقوا
صدرى بأظافرهم وملأوا نفسى بكذبهم . قد أخبرتنى نجيبه
بأنك سلوتنى وكرهتنى وانشفقت بحبها . قد ظلمتنى تلك
الخبينة واحتالت على عواطفى لكي أَرْضى بنسبها عريساً
فرضيته يا سليم ولا عريس لي سواك . والآن : والآن قد

رُفِعَ الغشاء عن عيني فجئت إليك . قد خرجت من هذا المنزل ولن أعود إليه . قد جئت لكي أضمك بذراعي ولا توجد قوة في هذا العالم ترجعني الى ذراعي الرجل الذي زفقت إليه كرهاً ويأساً . قد تركت العريس الذي اختاره لي الكذب بعلاً ، وتركته الوالد الذي أقامه القدر ولياً ، وتركته الزهور التي صنفرها الكاهن إكليلاً ، وتركته الشرائع التي حبكتها التقاليد قيوداً . قد تركت كل شيء في هذا المنزل المملوء بالسكر والخلاعة وأتيت لاتبعدك الى أرض بعيدة ، الى أقاصى العالم ، الى مكان الجن ، الى قبضة الموت ، تعال نسرع ياسليم من هذا المكان متسترين بوشاح الليل . هلم نسير الى الساحل وركب سفينة تحملنا الى بلاد بعيدة مجهولة . تعال نمشي الآن فلا يحىء الفجر إلا ونحن في مأمن من أيدي العدو . انظر . انظر هذه الحلبي الذهبية . وهذه القلائد والخواتم الثمينة ، وهذه الجواهر النفيسة ، فهي تكفل مستقبلنا وتكفي لنعيش بأثمانها كالأمراء . . لماذا لاتتكم ياسليم ؟ لماذا لاتنظر الي ؟ لماذا لاتقبلني ؟ أسامع

أنت صراخ قلبي وعويل نفسي — ألا تصدق بأني هجرت
عريسي وأبي وأمي وجئت بأثواب العرس لسكي أهرب
معك ؟ تكلم أو هلم نسرع فهذه الدقائق أثمن من حبات
الأماس وأغلى من تيجان الملوك »

كانت العروس تتكلم وفي صوتها نغمة أعذب من
همس الحياة وأمر من عويل الموت وألطف من حفيف
الأجنحة وأعمق من أنين الأمواج — نغمة تتموج نبضاتها
بين اليأس والأمل ، واللذة والألم ، والفرح والشقاء ، وكل
ما في صدر المرأة من الميول والعواطف .

أما الشاب فكان يسمع وفي داخل نفسه يتصارع الحب
والشرف : ذلك الحب الذي يجعل الوعر سهلاً ، والظلام
نوراً ، وذلك الشرف الذي يقف أمام النفس ، ويثنيها عن
رغائبها ومنازعها . ذلك الحب الذي ينزله الله على القلب ،
وذلك الشرف الذي تسكبه تقاليد البشر في الدماغ .

وبعد أحيان خرساء هائلة شبيهة بالأجيال المظلمة التي
تتميل فيها الأمم بين النهوض والاضمحلال ، رفع الشاب

رأسه وقد تغلب شرف نفسه على ميلها وحول عيذه عن
الصبيبة الخائفة المترقبة وقال بهدوء : « ارجى أيتها المرأة
إلى ذراعى عريسك فقد قضي الأمر ومحت اليقظة ماصورته
الأحلام - أسرعى إلى أحضان المسرات قبل أن تراك أعين
الرقباء فيقول الناس قد خانت عريسها فى ليلة العرس مثلما
خانت حبيبها أيام البعاد »

فارتعشت العروس لهذه الكلمات وتمايلت كزهرة
ذابلة أمام الريح ثم قالت متوجعة « لا أعود إلى هذا المنزل
وبى رمق من الحياة ، قد خرجت منه إلى الأبد ، قد تركته
وكل من فيه مثلما يترك الأسير أرض المنفى ، فلا تبعدى عنك
ولا تقل بأنى خائنة ، لأن يد الحب الذى مزجت بروحي
بروحك هي أقوى من يد الكاهن التى أسلمت جسدى إلى
مشيئة المريس ، هاقد طوقت ذراعى حول عنقك فلا
تحلما القوات وقربت نفسى إلى نفسك فلا يفرقهما الموت »
فقال الشاب محاولاً الخلاص من ذراعيها متكلفاً إظهار
المقت والاشمئزاز « ابتعدى عني أيتها المرأة فقد سلواتك ، نعم

سلوتك وكرهتك وتعلقت بهوى غيرك ، فلم يقل الناس
غير الصحيح . هل سمعت ماذا أقول ؟ قد سلوتك حتى
نسيت وجودك وكرهتك حتى أبت نفسي مرآك فابتعدي
عني ودعيني أذهب في سبيلي ، وعودي إلى عريسك وكوني
له زوجة أمينة »

فقال الصبية متفجعة « لا لا أصدق كلامك فأنت
تحبني وقد قرأت معنى الحب في عينيك وشعرت بلامسه
عندما لمست جسدي . أنت تحبني وتحبني وتحبني مثلما أحبك
فأنا لا أترك هذا المكان إلا بجانبك ولن أدخل هذا المنزل
وفي نفسي بقية من الإرادة . قد جئت لكي أتبعك إلى
آخر الأرض فسر أمامي وارفع يدك واهرق دمي »

فقال الشاب وقد رفع صوته عن ذي قبل « اتركني
أيتها المرأة ولا صرخت بأعلى صوتي وجمعت في هذه الحديقة
أولئك الناس المدعوين إلى أفراح عرسك وأريتهم عارك
وجعلتك مضغة مرة في أحناكهم ومثلاً قبيحاً على ألسنتهم
وأوقفت نجيبة التي أحبا قلبي تسخر بك وتبتسم فارحة

بانتصارها مستهزئة بانغلابك »

قال هذا وأمسك بذراعها ليبعدها عنه فتغيرت ملامحها وأبرقت عيناها وتحولت بكليتها من الاستعطاف والرجاء والتوجه إلى الغضب والقساوة وصارت كلبوة فقدت أشبالها أو كبحر أثارت أعماقه الزوابع ثم صرخت « من هي التي تتمتع بحبك بعدي وأي قلب يسكر بقبل شفتيك غير قلبي ! » لفظت هذه الكلمات وانتشلت من بين أثوابها خنجرًا سنينا وأغمده بصدره بسرعة البرق ، فهوى وسقط على الأرض كغصن قصفته العاصفة فأنحنت فوقه والخنجر في يدها يقطر دماء ، ففتحت عينيه المغمورتين بظل الموت وارتعشت شفته وخرجت هذه الكلمات مع أنفاسه الضعيفة « اقتربي الآن يا حبيبتي اقتربي ياليلي ولا تتركني . الحياة أضعف من الموت والموت أضعف من الحب . اسمي اسمي قهقهة الفارحين بعرسك . اسمي رنين كؤوسهم يا حبيبتي . لقد أنقذتني ياليلي من قساوة هذه القهقهة ومرارة تلك الكؤوس فدعيني أقبل اليد التي كسرت قيودي . قبلي شفتي . قبلي

شفقًّ اللّتين تكلفتا الكذب واخفتا أسرار قلبي . أغمضى
أجفاني الذابلة بأصابمك المغموسة بدمي . وعندما تطير
روحي في الفضاء ضمي الخنجر في يميني وقولي لهم قد انتحر
يأساً وحسداً . قد أحببتك يا ليلي ولم أحب سواك ولكنني
رأيت تضحية قلبي وسعادتي وحياتي أفضل من الهرب بك
في ليلة عرسك . قبليني يا حبيبة نفسي قبل أن يرى الناس
جثتي . . قبليني قبليني يا ليلي »

ووضع المصروع يده فوق قلبه المطعون ولوى عنقه
وفاضت روحه !

فرفعت العروس رأسها والتفتت نحو المنزل وصرخت
بصوت هائل « تعالوا ، تعالوا أيها الناس ، فهنا العرس وهذا
العريس ، هلموا لنريكم مضجعنا الناعم . استيقظوا أيها
النيام وانتبهوا أيها السكارى واسرعوا لنريكم أسرار
الحب والموت والحياة »

تموج صراخ العروس في زوايا ذلك المنزل حاملا
كلماتها إلى آذان المحتفلين المغبوطين ، فارتعشت أرواحهم ،

واصفوا هنيهة كأن الصبح قد باغت نشوتهم، ثم تراكموا
مسرعين من أبواب المنزل ومخارجه وساروا ملتفتين يميناً
وشمالاً حتى إذا مارأوا جثة المصروع والعروس الجاثية بقربها
تراجعوا مذعورين إلى الوراء ولا أحد منهم يجسر على
استقصاء الخبر كأن منظر الدماء المنبعثة من صدر القتيل
ولمان الخنجر في يد العروس قد عقد ألسنتهم وأجد
الحياة في أجسادهم

فالتفتت العروس إليهم وقد اتشحت ملامحها بهيبة
محزنة وصرخت قائلة « اقربوا أيها الجبناء ولا تخافوا خيال
الموت فهو عظيم لا يدنو من صنادركم اقربوا ولا ترتجفوا
جزعاً من هذا الخنجر فهو آلة مقدسة لا تلامس أجسادكم
القدرة وصدوركم المظامة . انظروا هذا الفتى الجميل المتسربل
بحلة العرس - هو حبيبي وقد قتلته لأنه حبيبي - هو
عريسي وأنا عروسته وقد بحثنا فلم نجد مضجعاً يليق
بعناقنا في هذا العالم الذي جعلتموه ضيقاً بتقاليدكم ومظالمكم
بجهالتكم وفاسداً بلهائكم ففضلنا الذهاب إلى ما وراء

الغيوم . اقربوا أيها الضعفاء الخائفون وانظروا لعلكم ترون
وجه الله منعكساً على وجهينا وتسمعون صوته المذب
منبتقاً من قلوبنا - أين هي تلك المرأة الخبيثة الحسودة التي
وشت إليّ بحبيبي وقالت بأنه شغف بها وسلافي وتعلق
بحبها لينساني . قد توهمت تلك الشريرة بأنها ظفرت عندما
رفع الكاهن يده فوق رأسي ورأس نسيبها . أين نجبية
المحتالة - أين تلك الأفعى الجهنمية - دعوها تقرب الآن
وترى بأنها قد جمعتكم لتفرحوا بعرس حبيبي وليس بعرس
الرجل الذي اختارته لي ... انتم لا تفهمون كلامي ، لأن اللجة
لا تعي أغاني الكواكب . لكنكم سوف تحبسون أبناءكم
عن المرأة التي قتلت حبيبها ليلة عرسها . سوف تذكروني
وتلعنوني بشفاكم الأئمة . أما أحفادكم فسوف يباركونني
لأن الغد سيكون للحق والروح .. وأنت أيها الرجل النبي
الذي استخدم الحيلة والمال والخباثة ليصيرني له زوجة -
أنت رمز هذه الأمة التعمسة التي تبحث عن النور في الظلمة
وتتقرب خروج الماء من الصخرة . وظهور الورد من

القطرب - أنت رمز هذه البلاد المستسلمة لغياوتها استسلام
الأعمى الى قائده الأعمى - أنت ممثل الرجولة الكاذبة التي
تقطع الأعناق والمعاصم توصلا إلى العقود والأساور . أنا
اغتفر لك صفارتك لأن النفس الفارحة بذهابها من هذا
العالم تغتفر جميع زلات هذا العالم »

حينئذ رفعت العروس خنجرها نحو .العلاء ونظير
ظامى يقرب حافة الكأس إلى شفثيه أنعمته بعزم في صدرها
وهبطت بجانب حبيبها نظير زنبقة قطع عنقها حد المنجل .
فتململت النساء وصرخن صراخ الخوف والألم وأنغمى على
بعضهن وتصاعد ضجيج الرجال من كل ناحية واقتربوا
من المصروعين بوجل وهيبة .

فنظرت إليهم العروس المنازعه وقالت ونجيع الدماء
ينهل بغزارة من صدرها البلوري « لا تقتربوا أيها الماذلون
ولا تفصلوا بين جسدنا ، وان حاولتم فالروح الجائمة فوق
رؤوسكم تقبض على أعناقكم وتخنقكم بعنف وقساوة .
دعوا هذه الارض الجائمة تلوك جسدنا لقمة واحدة .

دعوها تخفينا وتحمينا في صدرها مثما تحمي البذور من
ثلوج الشتاء حتى يجيء الربيع »

ولزت العروس إلى حبيبها وألقت شفتيها على شفتيه

الباردين وخرجت هذه الكلمات المتقطعة مع أنفاسها

الأخيرة « أنظر يا حبيبي - انظريا عريس نفسي كيف وقف

الحساد حول مضجعنا - انظر عيونهم المحدقة بنا ، واسمع

صرير أسنانهم وتكسير ضلوعهم . قد انتظرتني طويلا

ياسليم فما أنذا . قد كسرت القيود وفككت السلاسل

فلنسرعن نحو الشمس فقد طال وقوفنا في الظل . ها قد

امحيت الرسوم وانحجبت الأشياء فلم أعد أرى سواك

يا حبيبي - ها شفتاي فاقتبل أنفاسي الأخيرة . هلم نذهب

ياسليم فقد رفع الحب أجنحته وسبح أمامنا نحو دائرة النور »

وألقت العروس صدرها على صدر حبيبها فامتزجت

دماؤها بدمائه وأحنت رأسها على عنقه وظلت عيناها

محدقتين بعينييه .

ولبت الناس صامتين هنيهة وقد اصفرت وجوههم

وتراخت ركبهم كأن هيبة الموت قد سلبتهم القوة والحرارة .
فتقدم إذ ذاك الكاهن الذي صفر بتعاليمه أ كاليل .
ذلك العرس وأشار يمينه نحو القتيلين ونظر نحو القوم
المذهولين وخاطبهم بصوت خشن قائلا « ملعونة هي الأيدي
التي تمد إلى هذين الجسدين الملتطخين بدماء الجريمة والمار .
وملعونة هي الأعين التي تذرف دموع الحزن على هالكين .
قد حملت الأبالسة روحيهما إلى الجحيم . لتبقى جثة ابن سادوم .
وجثة ابنة عمورة مطروحتين على هذا التراب الدنس المجبول
بدمائهما حتى تنقسم لهما الكلاب وتذري عظامهما الرياح .
اذهبوا إلى مساكنكم أيها الناس واهربوا من الرائحة
المنتنة المتصاعدة من داخل قلبي جبلتها الخطيئة وسحقتهما
الرديلة . تفرقوا أيها الواقفون بقرب هاتين الجيفتين ،
وانصرفوا مسرعين قبل أن تلسعكم السنة النار الجهنمية .
ومن يبق منكم ههنا يكن محروما ومرذولا فلا يدخل الهيكل .
الذي يركع فيه المؤمنون ولا يشترك بالصلاة التي يقدمها
المسيحيون : »

فتقدمت سوسان ، تلك الصبية التي بعثها العروس
رسولا الى حبيبها ، ووقفت امام الكاهن ونظرت اليه
بعينين مغرورقتين بالدموع وقالت بشجاعة « انا اُبقى هنا
أيها الكافر الأعمى وانا أُحرسهما حتى يجيء الفجر وأنا أُحفر
لهما قبرا تحت هذه الأغصان المتدلّية . فإن منعتم عنى محفرا
مزقت صدر الارض باصابعي ، وان ربطتم ساعدي حفرتي
باسناني ، أُسرعوا من هذا المكان المملوء برائحة البخور واللبان
فالخنازير تأتي استنشاق العطور الزكية ، واللصوص الخاطفة
تهاب رب البيت وتخشى قدوم الصباح . أُسرعوا الى
مضاجعكم المظلمة لأن أغاني الملائكة المتموجة فوق
شهيدي الحب لا تدخل آذانكم المسدودة بالتراب »
وتفرق الناس من أمام وجه الكاهن العبوس ولبثت تلك
الصبية واقفة بقرب الجنتين الهامدين كأنها أم رقوب تحرس
طفلها في سكينة الليل ولما توارى الجمع وخلال ذلك المكان
استسلمت للبكاء والنحيب .

١ خليل الكافر

كان الشيخ عباس بين سكان تلك القرية المتزوية
في شمال لبنان كالأمير بين الرعية . وكان منزله القائم بين
أكوأخهم الحقيرة يشابه الجبار الواقف بين الأقزام . وكانت
معيشته ممتازة عن معيشتهم بميزة السعة عن العوز وأخلاقه
مختلفة عن أخلاقهم باختلاف القوة عن الضعف
إن تكلم الشيخ عباس بين أولئك الفلاحين احنوا
رؤسهم إعجاباً كأن القوى العقلية قد اتدبته ممثلاً لها
واتخذت لسانه ترجائاً عنها . وإن غضب ارتجفوا جزعاً وتبددوا
من أمام وجهه مثلما تترأض أوراق الخريف أمام الريح .
وإن صفع خد رجل منهم ظل ذلك الرجل جامداً صامتاً
كأن الضربة قد أتت من السماء فمن الكفر أن يتجاسر أو يرفع
عينيه ليرى من أنزله . وإن تبسم لرجل آخر قال الجميع

ما أسعده فتي رضي عنه. الشيخ عباس
ولم يكن استسلام أولئك المساكين إلى الشيخ عباس
وخوفهم قساوته صادرين عن ضعفهم وقوته فقط بل كانوا
ناتجين عن فقرهم واحتياجهم إليه . لأن الحقول التي كانوا
يحرثونها والأكواخ التي يسكنونها كانت ملكه وقد ورثها
عن أبيه وجده مثلما ورثوا الفقر والتماسة من آبائهم وجدودهم .
فكانوا يفلحون الأرض ويزرعونها ويحصدونها تحت مراقبته
ولا يحصلون لقاء أتعابهم وجهادهم إلا على جزء من الغلة لا
يكاد ينقذهم من أظافر الجوع . قد كان أكثرهم يحتاج الخبز
قبل انقضاء أيام الشتاء الطويلة فيذهب إليه الواحد بعد الآخر
ويتضرع أمامه بأكيام مستعطفاً لكي يقرضه ديناراً أو مكياً لا
من الخنطة فكان الشيخ عباس يجيب سؤالهم مسروراً لعله
بأنه سيستوفي الدينار دينارين ومكيال الخنطة مكيالين عندما
تجبيء أيام البيادر والموسم . وهكذا كان يبق أولئك التمساء
مثقلين بديون الشيخ عباس مكبلين بحاجتهم إليه خائفين
غضبه طالبين رضاه .

قدم الشتاء بثلوجه وعواصفه وخلت الحقول والأودية
 إلا من الغربان الناعية والأشجار العارية فلزم سكان تلك القرية
 أكوأخهم بعد أن أشبعوا أهراء الشيخ عباس من الغلة وملاًوا
 آئنته من عصير الكروم وأصبحوا ولاعمل لهم ينفون الحياة
 بجانب المواقد متذكّرين ما أتى الأجيال الغابرة مرددين على
 مسامع بعضهم حكايات الأيام والليالي .

انقضى كانون الأول (دسمبر) وقضى العام المعجوز متنهداً
 أنفاسه الأخيرة في الفضاء الرمادي وجاءت الليلة التي يتوج
 فيها الدهر رأس عام الطفل ويجلسه على عرش الوجود .
 توارى النور الضئيل وغمرت الظامة البطاح والأودية
 وابتدأت الثلوج تنهمر بغزارة العواصف تصفر وتتسارع
 معلمة من أعالي الجبال نحو المنخفضات حاملة الثلوج لتخزنه
 في الوهاد فترتعش لهولها الأشجار وتتململ أمامها الأرض
 فزجت الأرياح بين ما تساقط من الثلج في ذلك النهار

والساقط منه في تلك الليلة حتى أصبحت الحقول والطلول
والممرات كصفحة واحدة بيضاء يكتب عليها الموت سطوراً
مبهمة ثم يحوها ، وفصل الضباب بين القرى المنثورة على
كتفي الوادي وتوارت الأنوار الضئيلة التي كانت تشعشع
في نوافذ البيوت والأكواخ الحقيبة. وقبضت الرعدة على
نفوس الفلاحين وانزوت البهائم بقرب المعالف واختبأت
الكلاب في القراني ولم يبق سوى الريح تخطب وتضج على مسامع
الكهوف والمغائر فيتصاعد صوتها الرهيب من أعماق الوادي
تارة وطوراً ينقض من أعالي قم الجبال. فكان الطبيعة قد غضبت
لموت العام المعجوز فقامت تأخذ بثأره من الحياة المختبئة
في الأكواخ وتحاربها بالبرد القارس والزمهرير الشديد .

ففي هذه الليلة الهائلة وتمت هذا الجو الثائر كان في
في الثانية والعشرين من عمره يسير على الطريق المتصاعدة
بتدرج من دير قزحيا^(١) إلى قرية الشيخ عباس وقد أيسس البرد

(١) وهو أغنى وأشهر دير في لبنان تقدر حاصلاته بالوف
الدنانير يسكنه عشرات من الرهبان المعروفين بالبلدين . وقزحياً
لفظة سريانية معناها « فردوس الحياة »

مفاصله وانتزع الجوع والخوف قواه وأخفت الثلوج ثوبه
الأسود كأنها تريد أن تكفنه قبل أن تميته ، فكان يخطو إلى
الأمم والأرياح تصده وترجمه إلى الورا كأنها أبت أن تراه
في منازل الأحياء ، وتتشبث الطريق الوعرة بأقدامه فيسقط
ثم ينهك ثم يصرخ بأعلى صوته مستغيثاً ثم يخرسه البرد
فيقف صامتاً مرتجفاً كأنه العناصر المتحاربة كالأمل الضعيف
بين اليأس الشديد والحزن العميق . أو كمصفور مكسور
الجناحين سقط في النهر فحمله التيار الغضوب إلى الأعماق
وظل الشاب سائراً والموت يتبعه حتى خارت قواه
وانحطت عزيمته وتجمدت الدماء في عروقه فارتدى على الثلوج .
وصرخ صوتاً هائلاً هو بقية الحياة في جسده : صوت
خائف قد رأى خيال الموت وجها لوجه . صوت منازع
قائظ أ تلفته الظامة وقبضت عليه العاصفة لترمى به إلى الهاوية ،
صوت محبة السكبان في فضاء المدم

في الجهة الشمالية من تلك القرية كوخ صغير منفرد بين الحقول تسكنه امرأة تدعى راحيل مع ابنتها مريم غير المتعجيزة الثامنة عشرة من سنيها . هذه المرأة هي أرملة سمعان الراعي الذي وجد قتيلا في البرية منذ خمسة أعوام ولم يعرف قاتله بعد . كانت راحيل مثل جميع الأراامل الفقيرات تعيش بالاجتهاد والعمل مخافة الموت والفناء . فكانت تخرج أيام الحصاد وتلتقط السنابل المتروكة في الحقل وفي أيام الخريف كانت تجمع فضلات الأثمار المنسية في البساتين وفي الشتاء كانت تغزل الصوف وتخييط الأثواب لقاء درهيمات قليلة أو مكيال من الذرة . وكانت جميع أعمالها مقرونة بالشباب والصبر والاعتناء . أما ابنتها مريم فكانت صبية جميلة هادئة تشاطر والدها الأثواب وتساهمها أعمال البيت . ففي تلك الليلة المخيفة التي وصفناها كانت راحيل وابنتها جالستين بقرب موقد قد تغلب البرد على حرازة واكتنف

الرماد جره : وفوق رأسيهما سراج ضئيف يبعث أشعته
الصفراء الضئيلة إلى قلب الظلمة مثلما تبعث الصلاة أشباح
التمزية إلى كبِد الفقير الحزين .

انتصف الليل والمرأتان جالستان تسمعان ولولة الأرياح
خارجاً ومن وقت إلى آخر كانت الصبية تقف وتفتح الكوة
الصغيرة وتنظر نحو الفضاء المظلم ثم تعود إلى مكانها مضطربة
مرتعبة من غضب العناصر

في تلك الدقيقة تحركت الصبية فجأة كأنها استيقظت
من سبات نوم عميق والتفتت بوجل نحو أمها وقالت بسرعة
« هل سمعت يا أماه . هل سمعت صوت صارخ مستغيث »
فرفعت الوالدة رأسها وأصغت هنيهة ثم أجابت (لا لم
أسمع سوى عويل الأرياح يا ابنتي)

فقالت الصبية (أنا قد سمعت صوتاً أعمق من هزيم
الريح وأمر من عويل العاصفة)

قالت هذه الكلمات وانتصبت واقفة وفتحت الكوة
وأصغت دقيقة ثم قالت « قد سمعت الصراخ ثانية يا أماه »

فأجابته الام وقد أسرعرت مرتاعة نحو النافذة « وأنا قد سمعت أيضاً ... تعالي نفتح الباب وننظر .. أوصدي النافذة كيلا تطفئ الريح السراج »

قالت هذا والتفت برداء طويل وفتحت الباب وخرجت يقدم ثابتة وبقيت مريم واقفة في الباب والهواء يتلاعب بجذائل شعرها .

مشى راحيل بضع خطوات فالحق الثلج بقدميها ثم وقفت ونادت « من الصارخ - أين المستغيث » فلم يجبها أحد ثم رددت كلماتها هذه ثانية وثالثة وإذ لم تسمع غير صراخ الزوبعة تقدمت إلى الأمام بشجاعة ملتفتة إلى كل ناحية حاجبة وجهها من تموجات الريح العنيفة . ولم تسر رمية سهم حتى رأت أثر أقدام غارقة في الثلج قد أوشكت الأرياح أن تمحوها فاتبعها بسرعة جازع مترقب وبعد هنيهة نظرت فرأت أمامها جسداً مطروحاً على الثلج كرقعة سوداء على ثوب ناصع البياض . فتقدمت وذرت الثلج عنه وأسندت رأسه على ركبتيها ووضعت يدها على صدره وإذ شمعت بنبضات

قلبه المتهاونة التفتت نحو الكوخ وصرخت قائلة « هامي
يامريم هامي إلى معواتي فقد وجدته »
نخرجت مريم من البيت متبعة أثراقدام والدتها مرتمشة
من البرد والخوف حتى إذا ما بلغت المكان ورأت الشاب
الملقى بلا حراك على الثلج تأوهت وصرخت بلهفة وتوجع ،
فقالَت الأم وقد وضعت يديها تحت أبطيه « هو حي فلا
تخافي بل أمسكي بأطراف أثوابه وتعالى نحمله إلى البيت »
حملت المرأتان الفتى والأرياح الشديدة تصدهما والثلوج
تتمسك بأقدامهما حتى إذا ما بلغتاه الكوخ ألقتهما بجانب
الموقد وأخذت الأم تفرك أعضائه المتجلدة والإبنة تحفف
بأطراف ثوبها شعره البليل وأصابمه الباردة . فلم تمر بضع
دقائق حتى عادت إليه الحياة فتحرك قليلاوارتمشت أجفانه
وتنهد تنهيدة عميقة بثت الأمل بنجائه في قلبي المرأتين
الشفوقتين . فقالت مريم بعد أن حلت سيور حذائه المهشم
وخلعت عباءته البليلة « انظري يا أماه انظري ملابسه فهي
شبيهة بأثواب الرهبان » فالتفتت راحيل وقد وضعت في الموقد

غمرًا من القضبان اليابسة وقالت مستغربة « ان الرهبان
لا يخرجون من الدير في مثل هذه الليلة المخيفة فأى شئ
يأتى جمل هذا المسكين بخاطر بحياته ؟ »

فقالت الصبية مستدركة « ولكن هو أمر ديا أمه
وللرهبان لى كثيفة » فنظرت اليه الوالدة وقد انسكبت
الرافة الوالدية من عينيها وقالت متهددة « جفني قدميه
جيداً يا ابنتى راهباً كان أم مجرماً »

وفتحت راحيل الخزانة الخشبية وأخرجت منها جرة
صغيرة مملوءة خمرًا وسكبت منها فى اناء من الفخار ثم قالت
لابنتها « اسندى رأسه يا مريم لنجرحه قليلاً من الخمر فينتعش
وتمود الحرارة إلى جسده »

فربت راحيل حافة الطاس الى شفتي الشاب وجرعته
قليلاً ففتح عينيهِ الكبيرتين ونظر الى منقذه لأول مرة
نظرة لطيفة محزنة قد انبعثت مع دموع الشكر ومعرفة
الجميل — نظرة من شعر بلامس الحياة بعد أن كان بين
مخالب الموت — نظرة الأمل بعد اليأس . ثم ألوى عنقه

وخرجت هذه الكلمات من بين شفثيه المرتعشتين
« ليباركك الله »

فقالت راحيل وقد وضعت يدها على كتفه « لا تزعج
نفسك بالكلام يا أخي بل ابق صامتاً حتى تمود إليك القوة »
وقالت مريم (انكئ يا أخي إلى هذا المسند واقرب
قليلاً من الموقد »

فاتكأ الشاب متنهداً وبعد دقيقة ملأت راحيل الطاس
خمرًا وسقته ثانية ثم التفتت نحو ابنتها وقالت (ضعي جبته
بقرب النار لتجف) ففعلت مريم ثم جلست تنظر إليه بحنو
وشفقة كأنها تريد أن تبيث بنطراتها الحرارة والقوة
في جسده النحيل .

وأحضرت راحيل إذ ذاك رغيفين من الخبز وقصعة
مملوءة دبساً وطبقاً عليه بعض الثمار المجففة وجلست بجانبه
تطعمه بيدها لقماً صغيرة مثلاً تفعل الأم وطفلها . حتى اذا
اكتفى من الطعام وشمر بشيء من النشاط استوى جالساً
على البساط فانعكست أشعة النار الوردية على وجهه المصفر

وتلمعت عيناه الحزینتان ثم قال هازاً رأسه بهدوء « الرحمة والقساوة تتصارعان في القلب البشري مثلما تتحارب العناصر في فضاء هذه الليلة المظلمة ولسكن سوف تتغلب الرحمة على القساوة لأنها الهیة وسوف تمر مخاوف هذه الليلة بمجىء النهار » وسكت الشاب دقيقة ثم زاد بصوت منخفض يكاد لا یسمع « يد بشریة دفعتنی إلى الهوان ويد بشریة خلصتني فما أشد قساوة الانسان وما أكثر أفرته »

فقال راحیل بصوت متمرج بمقاطعه عاطفة الأمومة بعدوبة الطمأنينة « کیف تجرأت يا أخى وتركت الدیر فی هذه الليلة التي تخافها الذئاب وتنزوى بالكهوف وتهابها العقبان فتختبئ بين الصخور »

فأغمض الشاب عينیه كأنه يريد أن یعيد بأجفانه الدموع إلى أعماق قلبه ثم قال « للشعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار ، وأما ابن الانسان فليس له أن یسند رأسه »

فقال راحیل « هكذا قال یسوع الناصرى عن نفسه عند ما طلب اليه أحد الكتبة ان يتبعه إلى حيث یذهب »

فأجاب الشاب « وهكذا يقول كل من يريد ان يتبع الروح والحق في هذا الجيل المملوء بالكذب والرياء والفساد » . فسكتت راحيل مفكرة بمعنى كلماته ثم قالت بشيء من التردد « ولكن في الدير . غرف عديدة رحيبة ، وخزان طائفة بالذهب والفضة ، وأقبية مملوءة بالغسله والخمور ، وزرائب غاصة بالمجول والكبوش المسمنة ، فأني أمر جملك تترك جميع هذه الاشياء وتخرج في مثل هذه الليلة ؟ » فقال الشاب متنهداً . « قد تركت جميع هذه الاشياء . وخرجت كرهاً من الدير »

فقالت راحيل « ان الراهب في الدير نظير الجندي في ساحة الحرب يزجره رئيسه فينحني صامتاً ويأمره فيطيع مسرماً . وقد سمعت بأن الرجل لا يصير راهباً الا اذا نزع عنه الارادة والفكر والميل وكل ما يختص بالنفس ، ولكن الرئيس الصالح لا يطلب من مرءوسيه فوق طاقتهم فكيف يطلب منك رئيس دير قزحيا ان تسلم حياتك الى العواصف والثلوج ؟ »

فاجاب الشاب « ان الرجل لا يصير راهباً في عرف
رئيسه الا اذا كان مثل آلة عمياء خرساء فافدة الحس والقوة .
أما أنا فقد خرجت من الدير لأنني لست آلة عمياء بل انساناً
يرى ويسمع »

فأحدثت به راحيل ومريم كأنهما قد رأتا في وجهه سرّاً
خفياً يريد كتمانها ، وبعد هنيهة قالت الوالدة مستغربة
« أخرج الانسان الذي يرى ويسمع في مثل هذه الليلة التي
تعمي العميون وتصم الآذان ؟ »

فتنهّد الشاب وأخنى رأسه على صدره وقال بصوت
عميق « خرجت مطروداً من الدير »
فقالت راحيل بدهشة « مطروداً ؟ »
ورددت مريم هذه الكلمة متأوهة .

فرفع الشاب رأسه وقد ندم على إظهاره الحقيقة للمراأتين
وخاف أن تتحول رأفتهم عليه الى استياء واستهجان ولكنه
نظر فرأى في عينيها أشعة الشفقة متموجة مع محبة
الاستطلاع فقال بصوت مخنوق (نعم خرجت مطروداً من

الدير لأنني لم أستطع أن أحفر قبوري بيدي لأن قلبي قد
تعب في داخلي من متابعة الكذب والرياء . لأن نفسي أثبت
أن تنعم بأموال الفقراء والمساكين . لأن روحي قد امتنعت
عن التلذذ بخيرات الشعب المستسلم إلى الغباوة . خرجت
مطروداً لأن جسدي لم يعد يجد راحة في الغرف الرحبة التي
بناها سكان الاكواخ . لان خوفاً لم يعد يقبل الخبز المعجون
بدموع اليتيم والأرملة . لأن لساني لم يعد يتحرك بالصلاة
التي يبيعها الرئيس بأموال المؤمنين والبسطاء . خرجت
مطروداً كالأبرص القذر لأنني رددت على مسامع القسوس
والرهبان آيات الكتاب الذي جعلهم قسوساً ورهباناً »
وسكت الشاب وظلت راحيل ومريم ناظرتين اليه
مستغربتين كلامه محذقتين بوجهه الجميل الحزين متلفتتين بين
الآونة والأخرى إلى بعضهما كأنهما اتسآء لان بالسكينة عن
الأسباب الغريبة التي جاءت به إليهما . حتى اذا مامت محبة
الاستقصاء في قلب الوالدة نظرت اليه بانعطاف وسألته قائلة
« أين أبوك وأمك يا أخى - هل هما حيان »

فأجاب الشاب والفصات الموجهة تقطع الفاظه « ليس
لي أب ولا أم ولا أخت ولا مسقط رأس »
فتنهدت راحيل متأثرة وحولت مريم وجهها نحو
الحائط لتخفي دمة محرقة استقطرتها الشفقة من أجفانها.
فنظر اليها الشاب نظرة المغلوب إلى منجده وقد انتعشت
نفسه برقة عواطفها مثلما تنتعش الزهرة النابتة بين الصخور
عندما يسكب الصباح قطرات الندى في قلبها. ثم رفع رأسه
وقال (مات أبي وأمي قبل أن أبلغ السابعة من عمري فأخذني
كاهن القرية التي ولدت فيها إلى دير قزحيا فسر الرهبان بي
وجعلوني راعياً للبقر ولما بلغت الخامسة عشرة ألبسوني هذا
الثوب الاسود والخشن ووقفوني أمام المذبح قائلين . اقسم
بالله وقديسيه بأنك قد نذرت الفقر والطاعة والعفة . فرددت
كلامهم قبل أن أفهم مفاد كلامهم ، وقبل أن أدرك معاني
الفقر والطاعة والعفاف ، وقبل أن أرى السبيل الضيقة التي
سيروني عليها . كان اسمي خليلاً فصار الرهبان منذ ذلك الحين
يدعونني الأخ مبارك ولكنهم لم يعاملوني قط كأخ لهم

كانوا يتنعمون باللحوم والمأكـل الشهية ويطعموني الخبز اليابس
والبقول المجففة ويتلذذون بالخمر والمشارب الطيبة ويسقونني
الماء ممزوجاً بالمـوع ويتضجعون على الأُسرة الناعمة وينعمونني
على فراش حجري في غرفة مظلمة باردة بجانب زرائب الخنازير
فكنت أقول في نفسي : متى أصبح راهباً ياترى فأشارك هؤلاء
السعداء بنعيمهم ، وأصبح خليقاً بلذاتهم ومسراتهم فلا تقطع
قلبي رائحة الطعام ، ولا تمذب كبدي ألوان الخمر ، ولا ترتعش
روحي لصوت الرئيس . ولكن باطلا كنت أتمنى وأحلم
لأنني بقيت أرمي البقر في البرية وأنقل الحجارة الثقيلة على
ظهري واحفر التراب بساعدي - بقيت أفعل كل ذلك لبقاء
الخبز الدنيء والمأوى الضيق لأنني لم أكن أعلم بأنه يوجد
مكان غير الدير يمكن أن أعيش فيه لأنهم علموني الكفر بكل
شيء إلا معيشتهم . وسمّوا نفسي بنقيع اليأس والاستسلام
حتى ظننت بأن هذا العالم هو بحر أحزان وشقاء وأن الدير
هو ميناء الخلاص .

واستوى خليلي حاليماً وانبطت ملاحه المنقبضة ونظر

كأنه رأى شيئاً جميلاً منتصباً أمامه في ذلك الكوخ . أما راحيل ومريم فلبثتا صامتين محدقتين به وبعد هنيهة عاد فقال « ان السماء التي شاءت فأخذت والدي ونفتني يتيماً الى الدير لم تشأ أن أصرف العمر كله كالأعمى السائر في المعابر الخطرة ، ولم ترض بأن أكون عبداً تمسأ متصاعراً الى نهاية الحياة ، ففتحت عيني وأذني وأرتني النور مشعشعاً وأسمعتني الحقيقة متكلمة .

فهزت راحيل رأسها اذ ذاك وقالت « أوجد نور غير النور الذي تسكبه الشمس على جميع الناس . وهل بإمكان البشر أن يعرفوا الحقيقة ؟ »

فأجاب خليل قائلاً : « النور الحقيقي هو ذلك الذي ينبثق من داخل الانسان ، ويبين سرائر النفس للنفس ويجعلها فارحة بالحياة مترنمة باسم الروح . أما الحقيقة فهي كالنجوم لا تبدو إلا من وراء ظلمة الليل . الحقيقة هي مثل جميع الأشياء الجميلة في هذا العالم لا تظهر مفاعليها (٧ - الارواح المتمردة)

المستحبة إلا لمن شعر بتأثيرات البطل القاسية . الحقيقة
هي تلك العاطفة الخفية التي تعلمنا أن نفرح بأيامنا وتجعلنا
نتمنى ذلك الفرحة نفسه لجميع الناس »

فقالت راحيل « كثر هم الذين يعيشون حسب العاطفة
الخفية الكائنة في قلوبهم ، وكثر هم الذين يمتقدون بأن هذه
العاطفة هي ظل الناموس الذي سنه الله للإنسان . ولكنهم
لا يفرحون قط بأيامهم بل يظلون تمساء حتى الموت »

فأجابها خليل قائلاً « باطلة هي الاعتقادات والتعاليم التي
تجعل الإنسان تمساً في حياته . وكذابة هي العواطف التي
تقوده الى اليأس والحزن والشقاء . لأن واجب الإنسان
أن يكون سعيداً على الأرض وأن يعلم سبل السعادة ويكرز
باسمها أينما كان . ومن لا يشاهد ملكوت السموات في هذه
الحياة لن يراه في الحياة الآتية . لأننا لم نجى ، هذا العالم
كالمنفيين المرزولين بل جئنا كأطفال الأغبياء لكي نتعلم
من محاسن الحياة وأسرارها عبادة الروح الكلي الخالد
واستطلاع خفايا نفوسنا . هذه هي الحقيقة التي عرفتها عند

ما قرأت تعاليم يسوع الناصري وهذا هو النور الذى انبثق
من داخلى وأبان لى الدير ومن فيه كهوة مظلمة تلبعث من
أعماقها الاشباح الخيفة لتميئنى ، هذا هو السر الخفى الذى
أعلنته البرية الجميلة لنفسى عند ما كنت أجلس جائعاً باكياً
متأوهاً فى ظل الأشجار . فى يوم وقد سكرت نفسى من
هذه الحرة السماوية تشجعت ووقفت بين الرهبان اذ كانوا
جالسين فى حديقة الدير مثلما تربض البهائم المتخومة وأخذت
أبين لهم أفكارى وأتلو على مسامعهم آيات الكتاب التى
تبين ضلالهم وكفرهم . قلت لهم : لماذا نصرف الأيام فى هذه
الخلوة متمتعين بخيرات الفقراء والمساكين مستطيين الخبز
المعجون بعرق جبينهم ودموع أجفانهم متلذذين بفلة
الأرض المسلوبة منهم — لماذا نعيش فى ظلال التواني
والكسل مبتعدين عن الشعب المحتاج الى المعرفة حارمين
البلاد قوى نفوسنا وعزم سواعدنا . أن يسوع الناصري قد
بعثكم كالخراف بين الذئاب فأى تعاليم جعلتكم تصيرون
كالذئاب بين الخراف ؟ لماذا تبتمدون عن البشر وقد خلقكم

الله بشراً . اذا كنتم أفضل من الناس السائرين في موكب الحياة عليكم أن تذهبوا إليهم وتعالوهم وان كانوا أفضل منكم امتزجوا بهم وتعالوا .. كيف تنذرون الفقر وتميشون كالأمراء وتنذرون الطاعة وتمردون على الانجيل وتنذرون المنة وقلوبكم مفعمة بالشهوات ... أنتم تتظاهرون بقتل أجسادكم ولكنكم لا تقتلون غير نفوسكم . وتتظاهرون بالترفع عن العالميات وأنتم أكثر الناس طمعاً . وتتظاهرون بالتنسك والتقشف وأنتم كالبهاائم المشغولة عن المعرفة بطيب المرعى . تعالوا نعيد أراضى الدير الوسيعة الى سكان هذه القرى المحتاجين ونرجع الى جيوبهم الأموال التى أخذناها ، تعالوا تتفرق إلى كل ناحية مثلما تتفرق أسراب الطيور فنخدم الشعب الضعيف الذى جعلنا أقوياء ، ونصلح البلاد التى نعيش بخيراتها ، ونعلم هذه الأمة التعمسة أن تبتسم لنور الشمس وتفرح بمواهب السماء ومجد الحياة والحرية . لأن المتاعب التى نجدها بين الناس هي أجل وأجل من الراحة التى نستسلم إليها فى هذا المكان ، والرافة التى نلامس

بها قلب القريب هي أسمى من الفضيلة المختبئة في قراني الدير،
وكلمة التعزية التي نقولها على مسامع الضعيف والمجرم والساقطة
هي أشرف من الصلاة الطويلة التي نردها في الهيكل »

وسكت خليل دقيقة مسترجعاً أنفاسه ثم رفع عينيه
نحو راحيل ومريم وقال بصوت هادئ:

« كنت أتكلم بهذه الأشياء وما يشابهها أمام الرهبان
وهم سامعون ودلائل الاستغراب بادية على وجوههم كأنهم
لم يصدقوا بأن فتى مثلي يقف بينهم ويتكلم متجاسراً بمثل
هذا الكلام حتى إذا ما انتهيت اقترب أحدهم وقال صارفاً
أسنانه « أتتجراً أيها الضعيف وتلفظ أمامنا بمثل هذا
الكلام » واقترب آخر وقال ضاحكاً مستهزئاً (هل تعلمت
هذه الحكمة من البقر والخنازير التي رافقتها كل أيام حياتك)
وجاء آخر وقال متوعداً (سوف ترى ما يحل بك أيها الخبيث
الكافر) ثم تفرقوا عنى إلى كل ناحية مثلما يبتعد الأصحاء عن
الأبرص . وذهب بعضهم وشكوني إلى الرئيس فاستدعاني
عند غروب الشمس وبعد أن وبخني بقساوة على منسمع من

الرهبان المبتهجين أمر بجلدي فجلدت بسياط من المرس، ثم
حكم بسجني شهراً كاملاً، فاقتادني الرهبان متقهقين فرحين
الى غرفة رطبة مظلمة... انقضى الشهر وأنا مطروح في ذلك
القبر لا أرى النور ولا أشعر بغير ديب الحشرات ولا ألمس
سوى التراب ولا أعرف نهاية الليل من بدء النهار ولا أسمع
سوى وطء أقدام أحد الرهبان عند ما يجيء ويضع بقربي
كسرة من الخبز اليابس العطن وطاساً من الماء الممزوج
بالخل. ولما خرجت من ذلك السجن ورأى الرهبان نحول
جسدي واصفرار وجهي توهموا بأن أميال نفسي قد ماتت
في داخلي وانهم بالجوع والعطش والعذاب قد قتلوا العاطفة التي
أحياها الله في قلبي: ... مرت الأيام أثر الليالي وأنا أجهد
النفس مفكراً في ساعات انفرادي بما يجعل أوائلك الرهبان
يرون النور ويسمعون نعمة الحياة. ولكن باطلا كنت
أفتكر وأفتكر، لأن الغشاء الكفيف الذي حاكته الأجيال
الطويلة على بصائرهم لا تمزقه الأيام القليلة. والطينة التي طلت
بها الغباوة آذانهم قد تحجرت فلا تزيلها ملابس الأصابع الناعمة»

وبعد سكينه مملوءة بالتمهيدات رفعت مريم رأسها
والتفتت نحو والدتها كأنها تستأذنها بالكلام ثم نظرت بكآبة
نحو خليل وسألته قائلة « هل عدت وتكلمت ثانية أمام
الرهبان فطرردوك من الدير في هذه الليلة المخيفة التي تعلم
الإنسان أن يكون رؤوفاً ورفوقاً حتى بأعدائه ؟ »

فقال الشاب « في هذا المساء عند ما تماظم حول العاصفة
وابتدأت العناصر تتحارب في الفضاء جلست منفرداً عن
الرهبان المستدفئين حول النار والمشغولين بسرد الحوادث
والحكايات المضحكة وفتحت الانجيل متأملاً بتلك الأقوال
التي تستميل النفس وتنسيها غضب الطبيعة وقساوة العناصر.
ولما رأي الرهبان بعيداً عنهم اتخذوا انفرادي سبباً للسخرية
بي، فجاء بعضهم ووقفوا بقربي وأخذوا يتغامزون ويضحكون
ويشيرون نحوي مستهزئين ، فلم أحفل بهم بل أطبقت
الكتاب وبقيت ناظراً من النافذة . فتململوا لذلك غيظاً
ونظروا إليّ شزراً لأن سكوتي قد أيس عواطفهم ثم قال
أحدهم ساخراً (ماذا تقرأ أيها المصلح العظيم) فلم أرفع عيني

نحو المتكلم بل فتحت الانجيل وقرأت منه بصوت عال هذه الآية (وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة ولا تبتدئوا تقولون في نفوسكم ان لنا ابراهيم أباً لأنني أقول لكم ان الله قادر على أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لابراهيم . والآن وقد وضعت الفأس على أصل الشجرة فكل شجرة لا تعطي ثمراً جيداً تُقطع وتلقى في النار . وسأله الجموع قائلين فماذا نفعل فأجاب وقال لهم من له ثوبان فليعط من ليس له ومن له طعام فليفعل هكذا) عندما قرأت هذه الكلمات التي قالها يوحنا المعمدان سكت الرهبان دقيقة كأن يداً خفية قد قبضت على أرواحهم ولكنهم عادوا ووقفهوا ضاحكين ثم قال أحدهم (قد قرأنا هذا الكلام مرات عديدة ولسنا نحتاج لرعاة البقر أن يرددوه على مسامعنا) فقلت (لو كنتم تقرأون هذه الآيات وتفهمونها لما كان سكان هذه القرى المغمورة بالثلوج يتأففون برداً ويتضورون جوعاً وأنتم ههنا تتمتعون بخيراتهم وتشربون عضير

كرومهم وتأكولون لحوم مواشيهم) .. لم تخرج هذه الالفاظ
من بين شفتي حتى صفني أحد الرهبان على وجهي كأني لم
أتكلم بغير الحماقة ، ثم رفسني آخر برجله وآخر انزع الكتاب
من يدي وآخر نادى الرئيس فجاء مسرعاً وإذا أخبروه بما جرى
تعالت قامته وزوى ما بين عينيه وارتجف غضباً وصرخ بأعلى
صوته (اقبضوا على هذا الشرير المتمرد وجروه بعيداً عن
الدير ودعوا العناصر الغضوبية تعامه الطاعة . اخرجوه الى
الظلمة الباردة لتفعل به الطبيعة مشيئة الله ثم اغسلوا أكفكم
خوفاً من سموم الكفر المتعلقة بأثوابه وإن عاد متضرعاً .
متظاهراً بالتوبة لا تفتحوا له الأبواب لأن الأفعى إذا سحنت
في القفص لا تنقلب حمامة والمليقة إذا غرست في الكرم
لا تثمر تيناً)

حيثئذ قبض الرهبان عليّ وجروني بعنف الى خارج
الدير وعادوا ضاحكين وقبل أن يوصدوا الأبواب سمعت
أحدهم يقول ساخراً (كُنتَ بالأمس ملكاً وكانت رعيتك
البقر والخنازير وقد دخل منك اليوم أيها المصلح لأنك أسأت .

السياسة فاذهب الآن وكن ملكاً على الذئاب الجامعة
والغربان المتطائرة وعلمها كيف يجب أن تعيش في كهوفها
وأوجرتها)

وتهدخليل شهيدة عميقة ثم حول وجهه ونظر إلى النار
المتأججة في الموقد . وبصوت جارج بحلاوته قال « هكذا
طردت من الدبر . وهكذا سامني الرهبان إلى يد الموت
فسرت والضباب يحجب الطريق عن بصري والأرواح
الشديدة تمزق أثوابي والثلوج المتراكمة تنمسك بركابي حتى
وهنت قواي فسقطت مستغيثاً صارخاً يائس شعراً بأنه
لا يوجد من يسمعه سوى الموت المخيف والأودية المظلمة .
ولكن من وراء الثلوج والأرياح ، من وراء الظلمة والغيوم ،
من وراء الأثير والكواكب ومن وراء كل شيء قوة هي
كل معرفة وكل رحمة قد سمعت صراخي وندائي فلم تشأ أن
أموت قبل أن أعلم ما بقى من سرائر الحياة فبعثتكم إلي لكي
تسترجعاني من أعماق الهاوية والعدم »

وسكت الشاب والامرأتان تنظران إليه بانعطاف

وإعجاب وشفقة كأن نفسيهما قد فهما خفايا نفسه وأشتركتا
معها بالشعور والمعرفة . وبعد هنيهة مدت راحيل يدها أسر
إرادتها ولمست يده بلطف وقالت والدموع تتلمع في عينيها
« ان من تختاره السماء نصيرا للحق لا تقنيه المظالم ولا تميته
الثلوج والعواصف »

وهمست مريم قائلة « ان العواصف والثلوج تقنى
الزهور ولكنها لا تميته بذورها »

فقال خليل وقد أنارت التعزية وجهه المصفر مثلما تنير
أشعة الفجر خطوط الأفق « إن كنتما لا تحسبانى متمردا
وكافرا كما يحسبني الرهبان يكون الاضطهاد الذي لقيته
في الدير رمزا للشدة التي تعانيها الأمة قبل بلوغها المعرفة .
وتكون هذه الليلة التي كادت تميته شبيهة بالثورات التي
تتقدم الحرية والمساواة . لأن من قلب المرأة الحساس
تنبثق سعادة البشر ومن عواطف نفسها الشريفة تتولد
عواطف نفوسهم »

قال هذا وانسكأ على الوسادة فلم تشأ الامرأتان متابعة

الحديث لأنهما عرفتا من نظراته بأن النعاس المتولد من الراحة والاستدفاء بعد عناء المسير قد راود عينيه .

ولم تمر بضع دقائق حتى أغمض خليل أجفانه ونام كالطفل المستأنس على ذراعي أمه فقامت راحيل بهدوء واتبعتها مريم وجلستا على فراشهما تنظران إليه كأن في وجهه الذابل جاذباً يستميل روحيهما ويحيط بقلبيهما . ثم همست الوالدة كأنها تتكلم مع نفسها وقالت « في عينيه المطبقتين قوة غريبة تتكلم بالسكينة وتنبه أميال النفس »

وقالت الابنة « يداه يا أماه مثل يدي صورة يسوع الموجودة في الكنيسة »

فهمست الوالدة « على وجهه السكتيب ظاهرة رقة المرأة وقوة الرجل »

وحملت أجنحة الكرى وروحي الامراتين إلى عالم الأحلام . وخذت النار في الموقد وتحولت إلى رماد . ثم جف زيت السراج فشح نوره ببطء ثم انطفأ . وظلت العاصفة الغضوبية تضج خارجاً والجوال قائم ينثر رقع الثلوج والرياح العنيفة تقذفها يمينا وشمالا .



مضى أسبوعان على تلك الليلة والفضاء المتلبد بالغيوم
يسكن حيناً ثم يشور متهيجاً غامراً الأودية بالضباب
مكفناً الطلول بالثلوج . وقد هم خليل ثلاث مرات أن
يتابع مسيره نحو الساحل فكانت راحيل تصده بلطف
وانعطاف قائلة

« لا تسلم حياتك ثانية إلى العناصر العمياء بل ابق
ههنا يا أخي فالحبز الذي يشبع اثنين يكفي ثلاثة ، والنار في
هذا الموقد تظل متقدمة بعد ذهابك مثلاً كانت قبله . نحن
فقراء يا أخي ولكننا نحيا أمام وجه الشمس مثل جميع الناس
لأن الله يمطينا خبزنا كفاف يومنا »

أما مريم فكانت ترجوه بنظراتها اللطيفة وتستعطفه
بتنهدياتها الهادئة لكي يمتنع عن الذهاب لأنها منذ دخوله
بين حي وميت ذلك البيت الحفير شمعت بوجود قوة
علوية في نفسه تبعث الحياة والشعاع الى قلبها وتنبيه عواطف

جديدة مستحبة في قدس من أقداس روحها — لأنها شعرت
لأول مرة في حياتها بتلك الحاسة الغريبة التي تجعل قلب
الصبية النقي مثل وردة بيضاء تشرب قطرات الندى وتسكب
دقائق العطر .

لا يوجد في داخل الانسان عاطفة أنقى وأعذب من
تلك العاطفة الخفية التي تستفيق على حين غفلة في قلب
الصبية وتملأ خلايا صدرها بالأنغام السحرية وتجعل أيامها
شبيهة بأحلام الشعراء ولياليها مثل الأنبياء . ولا يوجد بين
أسرار الطبيعة سر أقوى وأجل من ذلك الميل الذي يحول
سكينة نفس المذراء الى حراك مستمر يمت بعزمه ذكرى
الأيام الفائرة ويحيي بحلاوته الآمال بالأيام الآتية .

والصبية اللبنانية تمتاز عن صبايا الأمم بقوة عواطفها
ورقة احساسها لأن التربة البسيطة التي تحرم عاقلتها من
النمو وتوقف مداركها عن الارتقاء تحول نفسها الى استفسار
ميول نفسها وتشغل قلبها باستطلاع خفايا قلبها . الصبية
اللبنانية مثل يذبوع يخرج من قلب الارض بين المنخفضات

فلا يجد ممراً ليسير به نهراً نحو البحر فينقلب بحيرة هادئة
تنعكس على وجهها أشعة القمر والنجوم

وشعر خليل بتموجات روح مريم حول روحه ،
وعرف بأن الشعلة المقدسة التي أحاطت بقلبه قد لامست
قلبها . ففرح لأول وهلة وفرح طفل ضائع وجدأ مهول لكنه
عاد فلام نفسه على تسرعها وانشغالها ظناً منه بأن هذا التفاهم
الروحي سيضمحل كالضباب عند ما تفصله الأيام عن تلك
القرية فكان يناجي نفسه قائلاً « ما هذه الأسرار الخفية
التي تتلاعب بنا ونحن غافلون - وما هذه النواميس التي
تُسِرنا تارة على سبيل وعرة ففسير منقادين ، وتوقفنا طورا
أمام وجه الشمس فنقف فرحين ، وتبلغنا مرة قمة الجبل
فنبتسم متهللين وتهبط بنا أخرى الى أعماق الوادي فنصرخ
متوجمين ؟ ما هذه الحياة التي تعانقنا يوما كالحيب ويوما
تضعفنا كالعدو ؟ ألم أكن بالأمس مكرها مضطهداً بين
رهبان الدير ، أو لم أقبل العذاب والسخرية من أجل هذه
الحقيقة التي أيقظتها السماء في صدري ، أو لم أقل للرهبان بأن

السعادة هي مشيئة الله في الانسان ؛ إذا ما هذا الخوف ،
ولماذا أغمض عيني وأحول وجهي عن النور المنبعث من
عيني هذه الصبية ؛ أنا مطرود وهى فقيرة ولكن أبا الخبز
وحده يحيا الانسان ؛ أوليست الحياة ديناً ووفاء . أولسنا بين
العوز واليسر كالأشجار بين الشتاء والصيف ؛ ولكن ماذا
تقول راحيل إذا علمت بأن روح الفتى المطرود من الدير
وروح ابنتها الوحيدة قد تفاهمتا في السكينة واقتربتا من
دائرة النور الأعلى ؛ وماذا تفعل ياترى إذا مادرت بأن الشاب
الذي خلصته من مخالب الموت يريد أن يكون رفيقاً لابنتها ؛
وماذا يقول سكان هذه القرية البسطاء إذا ما علموا بأن فتى ربي
في الدير وخرج منه مطروداً فجاء قريتهم لكي يعيش بقرب
صبية جميلة ؛ أفلا يغلقون آذانهم إذا ما قلت لهم بأن الذي
يفادر الدير ليعيش بينهم يكون كالطائر الذي يخرج من ظلمة
القفص إلى النور والحرية ؛ وماذا يقول الشيخ عباس العائش
بين هؤلاء الفلاحين المساكين كالأمير بين العبيد إذا ما سمع
حكايته ؛ وماذا يفعل كاهن القرية إذا ما رددوا على مسامعه

تلك الأقوال التي سببت طردي من الديار ؟ »

كان خليل يناجى نفسه وهو جالس بقرب الموقد
يتأمل بالسنة النار الشبيهة بعواطفه . أما مريم فكانت
تختلس النظرات إليه وتقرأ أحلامه في ملامح وجهه وتسمع
صدى أفكاره خارجاً من صدرها وتشعر بخيالات هواجسه
متمايلة حول قلبها

ففي عشية يوم وقد وقف خليل بقرب الكوة المطلة
نحو الوادي ، حيث الأشجار والصخور الملتحفة بالشلوج
التحاف الأموات بالأكفان ، جاءت مريم ووقفت بجانبه
ونظرت من الكوة الى الفضاء ، فالتفت نحوها واذا التقت
عيناه بعينيها تنهد تنهيدة محرقة ثم حول وجهه وأغمض
أجفانه كأن نفسه قد تركته وسبحت ساعية في أعماق
اللانهاية باحثة عن كلمة تقولها

وبعد هنيهة تشجعت مريم وسألته قائلة : « الى أي
مكان تذهب عند ما تذوب هذه الثلوج وتنفتح الطرقات »
(٨ - الارواح المتمردة)

فأجابها وقد فتح عينيه الكبيرتين وأحدق بالأفق
البعيد « سوف اتبع الطريق إلى حيث لا أعلم »

فارتعشت روح مريم ثم قالت متنهدة : « لماذا
لا تسكن في هذه القرية وتبقى قريباً منا . ألبست الحياة ههنا
أفضل من القرية البعيدة »

فأجابها وقد اضطربت أحشاؤه لرقه كلماتها ونغمة صوتها
« إن سكان هذه القرية لا يقبلون المطرود من الدير جاراً
لهم ، ولا يسمحون له أن يتنفس الهواء الذي يحيطهم ، لأنهم
يحسبون عدو الرهبان كافراً بالله وقد يسيه »

فتأوهت مريم ولبثت ساكنة لأن الحقيقة الجارحة
قد أخرستها . حينئذ أسند خليل رأسه بيده وقال « إن سكان
هذه القرى يا مريم قد تعلموا من الرهبان والكهنة بفض
كل من يفتكر لذاته ، فصاروا يقلدونهم ويتبعون مثلهم
عن جميع الذين يريدون أن يصرفوا حياتهم فاحصين
لا تابعين . فإذا بقيت في هذه القرية وقلت لسكانها تعالوا
يا اخوتي نعبد ونصلي حسب مشيئة نفوسنا لا مثلاً يريد

الرهبان والقسس ، لان الله لا يريد أن يكون معبوداً من الجاهل الذي يقلد غيره ، يقولون هذا ملحد يعاند السلطة التي وضعها الله في أيدي كهانه . وان قلت لهم اصغوا يا اخوتي واسمعوا صوت قلوبكم واعملوا بإرادة الروح الكائنة في أعماقكم يقولون هذا شرير يريدنا أن نكفر بالوسائط التي أقامها الله بين السماء والأرض »

ونظر خليل اذ ذاك الى عيني مريم وبصوت يحاكي رنين الأوتار الفضية قال : « ولكن في هذه القرية يا مريم قوة سحرية تمتلكني وتنسبث بنفسي — قوة علوية قد أنستني اضطهاد الرهبان وحببت إلي قساوتهم . في هذه القرية لقيت الموت وجهاً لوجه وفيها عانقت روعي روح الله . في هذه القرية زهرة نابذة بين الأشواك يستميل جماها نفسي ويملاً عطرها كبدي فهل أترك هذه الزهرة وأذهب مبشراً بالمبادئ التي أبعدتني عن الدير أم أبقى بجانبها وأحفر لأفكاري وأحلامي قبرا بين الأشواك المحيطة بها . ماذا أفعل يا مريم ؟ »

سمعت مريم هذه الكلمات فاهتزت قامتها مثلما ترتعش
الزنبقة أمام نسيم السحر ، وفاضت أشعة قلبها من مقلتيها
فقالته والحياء يغالب أسانها « كلانا بين يدي قوة خفية
عادلة رحومة فلندعها تفعل ما تشاء بنا »

منذ تلك الدقيقة تمازجت عواطف خليل بعواطف
مريم وصارت نفساهما شعلة واحدة متقدة يذبعث منها
النور وتتضوع حولها البخور .

منذ ابتداء الدهر إلى أيامنا هذه والفئة المتمسكة بالشرف
الموروث تتحالف وتنفق مع الكهان ورؤساء الأديان على
الشعب . هي علة مزمنة قابضة بأظافرها على عنق الجامعة
البشرية ولن نزول إلا بزوال الغباوة من هذا العالم عندما
يصير عقل كل رجل ملكا ويصبح قلب كل امرأة كاهناً
إبن الشرف الموروث يبني قصره من أجساد الفقراء
الضعفاء . والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين
المستسلمين . . الأمير يقبض على ذراعي الفلاح المسكين
والكاهن يمد يده إلى جيبيه . . الحاكم ينظر إلى أبناء الحقول
عابساً والمطران يلتف نحوهم مبتسماً . وبين عبوسة النمر
وابتسامة الذئب يفنى القطيع . الحاكم يدعي تمثيل الشريعة
والكاهن يدعي تمثيل الدين وبين الاثنين تفنى الأجساد
وتضمحل الأرواح .

وفي لبنان — ذلك الجبل الغني بنور الشمس الفقير الى
نور المعرفة — قد اتحد الشريف والكاهن على الفقير
الضعيف الذي يحرق الأرض ويستغلها كيما يحمي جسده
من سيف الأول ولعنة الثاني .

ابن الشرف الموروث يقف في لبنان بجانب قصره
ويصرخ باللبنانيين قائلاً « قد أقامني السلطان ولياً على
أجسادكم » والكاهن ينتصب أمام المذبح هاتفاً « قد أقامني
الله وصياً على أرواحكم » أما اللبنانيون فيظلون صامتين
لأن القلوب المغلقة بالتراب لا تنكسر . لأن الأموات
لا يكونون .

فالشيخ عباس الذي كان في تلك القرية ولياً وحاكماً وأميراً
كان محباً لرهبان الدير ، محافظاً على تعاليمهم وتقاليدهم ، لأنهم
كانوا يشاركونه بقتل المعرفة وإحياء الطاعة في نفوس حارثي
حقوله وكرومه .

في ذلك المساء — بينما كان خليل ومريم يقتربان من
عرش الحب وراخيل تنظر إليهما بالنعطاف مستطلعة خفايا

نفسيهما — ذهب الخوري الياس كاهن القرية وأخبر الشيخ عباس بأن الرهبان الأتقياء قد طردوا من الدير فتي متمردا شريرا وأن هذا الملحد الكافر قد جاء القرية منذ أسبوعين وهو الآن ساكن في بيت راحيل أرملة سيمان الراى .

ولم يكتف الخوري الياس بإبلاغ الشيخ هذا الخبر بل زاد قائلا : « إن الشيطان الذي يُطرد من الدير لا ينقلب ملاكا في هذه القرية والتينة التي يقطعها رب الحقل ويلقيها في النار لا تعطي أثمارا جيدة وهي في الموقد . فإن كنا نريد أن تبقى هذه القرية سالمة من جرائم العلل الخبيثة علينا أن نطرد هذا الشاب من منازلنا وحقولنا مثلما طرده الرهبان من الدير »

فسأله الشيخ عباس قائلا : « وكيف عرفت بأن هذا الشاب سيكون في هذه القرية كالعلّة الخبيثة . أليس أفضل أن نبقيه عندنا ونجعله ناطورا للكروم أو راعيا للبقرة ؟ نحن بحاجة ماسة إلى العمال فإذا ما جلبت لنا الطريق فتي قوي الساعدين نسترضيه ولا نتركه .

فابتسم الكاهن تلك الابتسامة الشبيهة بملامس الأفعى
ثم قال ممسحاً لحيته الكثيفة بأصابعه « لو كان هذا الشاب
صالحاً للعمل لما طرده الرهبان لأن أراضى الدير وسيعه
وقطعنا به لا تحصى . وقد أخبرني مكاري الدير الذي بات عندي
ليلة أمس بأن هذا الشاب كان يردد على مسامع الرهبان آيات
الكفر مقرونة بالفاظ ثورية تدل على طيشه وخيائنه ، فقد
تجاسر مرات عديدة وخطب فيهم قائلاً « أرجعوا حقول
الدير وكرومه وأمواله إلى سكان هذه القرى الفقراء وتفرقوا
إلى كل ناحية وذاك خير من الصلاة والعبادة » وأخبرني
المكاري أيضاً بأن قساوة التوبيخ وأوجاع الجلد بالسياط
وظلمة السجن لم تعد لهذا الكافر صوابه بل كانت تغذي
الشیطان القابض على نفسه مثماً تكثراً وساخ المزابل عدد
الحشرات »

فانتصب الشيخ عباس على أقدامه ونظير نمر يتراجع
قليلاً إلى الوراء قبيل الوثوب بقي ساكناً هنيهة يُصِرُّ أسنانه
وينتنفص غيظاً . ثم مشى نحو باب القاعة ونادى خدامه

بصوت عال فجاء ثلاثة منهم ووقفوا أمامه مستظلمين أمره،
نخاطبهم قائلا : « في بيت راحيل الأرملة شاب مجرم يرتدي
أثواب راهب فاذهبوا الآن وقودوه اليّ مكتوفاً وإن
قاومتكم تلك المرأة افبضوا عليها وجروها على الثلج
بجدائل شعرها لأن من يساعد الشرير يكون شريرا »
فأحنى الخدام رؤوسهم وخرجوا مسرعين ليتمموا
مشيئة سيدهم ، وبقي الشيخ عباس والكاهن يتحدثان عما
يجب أن يفعله بالشاب المطرود وراحيل الأرملة .

توارى النهار وقدم الليل نائراً خيالاته بين تلك
 الاكواخ المكتنفة بالثلوج. وظهرت النجوم في ذلك الفضاء
 المظلم البارد ظهور الأمل بالخلود من وراء أوجاع النزاع
 والموت . فأوصد الفلاحون الأبواب والنوافذ وأشعلوا
 السراج وجلسوا يصطلون بقرب الموقد غير خافلين بأشباح
 الليل السائرة حول بيوتهم .

في تلك الساعة ينما كانت راحيل وابنتها مريم و خليل
 جالسين حول مائدة خشبية يتناولون العشاء طرق الباب
 ودخل عليهم خدام الشيخ عباس ، فالتفتت راحيل مذعورة
 وشهقت مريم مرتاعة ، أما خليل فلبث هادئاً كأن نفسه
 الكبيرة قد تنبأت وعامت بمجيء هؤلاء الرجال قبيـل
 مجيئهم . فاقترب أحد الخدام وألقى يده بمنف على كتف
 خليل وقال بصوت أجش « أأنت أنت الشاب المطرود
 من الدير ؟ » فأجابه خليل ببطء « أنا هو فماذا تريدون »

فقال الرجل « نريد أن نسير بك مكتوفاً الى منزل
الشيخ عباس وان أبديت ممانعة نجرك على الثلج كالخروف
المذبوح »

فانتصبت راحيل وقد اصفر وجهها وتجمدت جبهتها
وقالت بصوت مرتجف « أي ذنب أناه أمام الشيخ عباس
ولماذا تريدون جره مكتوفاً »

وقالت مريم ونعمة الرجاء والاستعطاف تمازج صوتهما
« هو فرد وأنتم ثلاثة فن الجبانة أن تتحالفوا على إذلاله
وتعذيبه »

فصرخ الخادم وقد هي غضبه « أوجد في هذه القرية
امرأة تعارض مشيئة الشيخ عباس » قال هذا وانتشل من
وسطه جبلاً متيناً ومليوثق به كتفي خليل . فوقف الشاب
ولم تتغير ملامحه بل ظل رأسه مرفوعاً كالبرج أمام الزوبعة
وسالت على شفثيه ابتسامة محزنة ثم قال « أنا أشفق عليكم
أيها الرجال لأنكم آلة قوية عمياء في يد مبصر ضعيف
يظلمكم ويسحق الضعفاء بسواعدكم . أنتم عبيد الغباوة

والغبابة هي أشد اسوداداً من بشرة الزنوج ، وأكثر استسلاماً للحييف والقساوة : كنت بالأمس مثلكم أيها الرجال وغداً تصيرون مثلي ، أما الآن فيبئنا هوة عميقة مظلمة تمتص ندائي وتحجب حقيقتي عنكم فلا تسمعون ولا تبصرون ، ها أنذا فشدوا ساعدي وافعلوا بي ما شئتم »

سمع الرجال هذا الكلام فجمدت عيونهم واقشعرت أبدانهم وُبهِتوا بالشاب هنيهة كأن عذوبة صوته قد انتزعت الحركة من أجسادهم وأيقظت الميول العلوية الهاجعة في أعماق قلوبهم ، ولكنهم عادوا فانتبهوا كأن صدى صوت الشيخ عباس قد تملل في مسامعهم وذكّرهم بالمهمة التي بهم من أجلها . فتقدموا وأوثقوا ساعدي الشاب ، وخرجوا به ساكتين شاعرين بشيء من الألم بين تلافيف ضمائرهم . فاتبعهم راحيل ومريم ونظير بنات أورشليم عند ما اتبعن يسوع الى الجلجلة سارّتا خلف خليل نحو منزل الشيخ عباس .

٧

إن الأخبار ، كبيرة كانت أم تافهة ، تنتقل بسرعة
الفكر بين الفلاحين في القرى الصغيرة ، لأن بَمدَم عن
مشاغل الاجتماع المتتالمة يجعلهم أن ينصرفوا بكليتهم إلى
استقصاء ما يحدث في محيطهم المحدود . وفي أيام الشتاء عند
ما تكون الحقول والبساتين راقدة تحت لُف الشلوج
وتزوي الحياة خائفة مستدفئة حول المواعِد يصير القرويون
أشد رغبة وأكثر ميلا إلى استطلاع الأخبار لكي يعلّوا
بتأثيراتها أيامهم الفارغة ويصرفوا باستفسارها ليلتهم الباردة .
وهكذا لم يقبض خدام الشيخ عباس على خليل
في تلك الليلة حتى انتشر الخبر كالعدوى بين سكان تلك
القرية ، وأثارت محبة الاستفهام نفوسهم ، فتركوا
أكوأخهم وترا كضوا مسرعين من كل ناحية كالجنود
المتفرقين ، فلم يبلغ الشاب المكتوف منزل الشيخ حتى
اجتمع في تلك الدار الوسيلة الرجال والنساء والصبيان

وكلهم يمدون أعناقهم بتشوق ليعظوا بنظرة من الكافر
المطروود من الدير ومن راحيل الأرملة وابنتها مريم اللتين
شاركتا الأرواح الشريرة على بث السموم والعلل الجهنمية
في قضاء قريتهم .

جلس الشيخ عباس على مقعد عال وترجع بجانبه الخوري
الياس ووقف الفلاحون والخدام مترقبين محدقين بالفتى
المكتوف الواقف بينهم برأس مرفوع وقوف الطود بين
المنخفضات. أما راحيل ومريم فكانتا واقفتين خلفه والخوف
يراود قلبيهما ونظرات القوم القاسية تعذب نفسيهما، ولكن
ماذا يفعل الخوف في عواطف امرأة رأت الحق فاتبعته
وماذا تفعل النظرات القاسية في فؤاد صبية سمعت نداء
الحب فاستيقظت ؟

ونظر الشيخ عباس إذ ذاك نحو الشاب وبصوت يشابه
ضجيج الأمواج سأله قائلاً : « ما اسمك أيها الرجل »
فأجابه : اسمي خليل . فقال الشيخ : « من هم أهلك
وذووك وابن مسقط رأسك »

فالتفت خليل نحو الفلاحين النافرين اليه بكروه واشمزاز
وقال : « الفقراء والمساكين المظلومون هم أهلي وعشيرتي .
وهذه البلاد الوسيعة هي مسقط رأسي »

فابتسم الشيخ عباس مستهزئاً ثم قال : « ان الذين
تنسب اليهم يطلبون معاقبتك والبلاد التي تدعيها وطناً
تأبى أن تكون من سكانها »

فقال خليل وقد اضطربت أحشائه « ان الشعوب
الجاهلة تقبض على أشرف أبنائها وتسلمهم الى قساوة العتاة
والظالمين . والبلاد المغمورة بالذل والهوان تضطهد محبيها
ومخلصيها . ولكن أترك الابن الصالح والدته اذا كانت
مريضة . وينكر الأخ الرؤوف أخاه اذا كان تمساً . إن
هؤلاء المساكين الذين أسلموني اليك مكتوفاً اليوم هم الذين
أسلموك رقابهم بالأمس . والذين أوقفوني مهاناً أمامك هم
الذين يزرعون حبات قلوبهم في حقولك ويهرقون دماء
أجسادهم على أقدامك وهذه الأرض التي تأبى أن أكون من
سكانها هي الأرض التي لا تنفّر فاها وتبتلع الطغاة والطامعين »

ففقّه الشيخ عباس ضاحكاً كأنه يريد أن يفرق
بضحكه القبيح روح الشاب ويوقفها عن المسير الى أرواح
السامعين البسطاء ثم قال : « أولم تكن راعياً لثيران الدير
أيها الشاب الوقح فلماذا تركت رعيته وخرجت مطروداً؟
هل ظننت أن الشعب يكون أكثر ألفة بالمجاذيب الملحدّين
من الرهبان الأتقياء »

فأجابه خليل : « كنت راعياً ولم أكن جزاراً . كنت
أقودُ العجولَ الى المروج الخضراء والمرعى الخصبة ولم أسر
بها قط الى الطلول الجرداء . كنت أوردّها الينابيع العذبة
وأبعدّها عن المستنقعات الفاسدة . كنت أعيدها في المساء
الى الحظيرة ولم أتركها في الوادي فريسة للذئاب والضواري
الخاطفة . هكذا كنت أفعل بالبهائم ولو فعلت أنت مثلي
بهذا القطيع المهزول الرابض الآن حولنا لما كنت تسكن
هذا القصر الرفيع وتتركه يُبيد جوعاً في الأكواخ المظلمة .
لو كنت ترحم أبناء الله المخلصين مثلما كنت أرحم عجول
الدير لما كنت جالساً الآن على هذا المقعد الحريري وهم

واقفون أمامك وقوف القضباز العارية أمام ربح الشمال ،
فتحرك الشيخ عباس منزعجاً ، وتلمعت على جبهته
قطرة عرق باردة ، وتبدل ضحكه بالغضب ، ولكنه عاد
فامتلك نفسه كيلا يظهر الاهتمام والاكثرات أمام رجاله
وتابعه ثم قال مشيراً بيده «لم نأت بك مكتوفاً أيها الكافر
لنسمع هذيالك ، بل احضرنالك لكي نحاكمك كجرم شرير
فاعلم إذاً بأنك واقف الآن أمام سيدهذه القرية وممثل إرادة
الامير أمين الشهابي أيده الله ^(١) وامام الخوري الياس ممثل
الكنيسة المقدسة التي كفرت بها . فدافع إذاً عن نفسك
مما اتهمت به أو فاركع مسترحماً نادماً أمامنا وأمام هذا الجمع
الساخر بك ، فنغفر لك ونجملك راعياً للبقر مثلاً كنت
في الدير »

فأجاب الشاب بهدوء : «إن المجرم لا يحاكمه المجرمون
والكافر الشرير لا يدافع عن نفسه أمام الخطاة »

(١) الامير أمين شهاب هو ابن الامير بشير الكبير وقد حكم
الجبيل بعد موت أبيه .

قال هذه الكلمات والتفت نحو الجمع المزدحم في تلك
القاعة الوسيعة وبصوت جهوري يشابه رنين الأجراس
الفضية ناداهم قائلاً « أيها الاخوة ، إن الرجل الذي أقامه
خضوعكم واستسلامكم سيداً على حقولكم قد أحضرني
مكتوفاً ليحاكمني أمامكم في هذا القصر المبني فوق بقايا
آبائكم وجدودكم ، والرجل الذي جعله أيمانكم كاهناً
في كنيستكم قد جاءني ليدينني ، ويساعد على تعذيب
وإذلاي . أما أنتم فقد ترا كضتم مسرعين من كل ناحية
لكي تنظروني متألماً وتسمعوني مستغيثاً مسترحماً . قد
تركتم جوانب المواقد الدافئة لتشهدوا ابنكم وأخاكم
مكتوفاً مهاناً . قد أسرعتم لتروا الفريسة المتوجمة بين
مخالب الكواسر . قد جئتم لتنظروا المجرم الكافر واقفاً
أمام القضاة . أنا هو المجرم . أنا هو الكافر الذي طرد من
الدير فحملته العاصفة إلى قريتكم . أنا هو ذلك الشرير
فاسمعوا احتجاجي ولا تكونوا مشفقين بل كونوا عادلين
لأن الشفقة تجوز على المجرمين الضعفاء . أما العدل فهو كل
ما يطالبه الأبرياء . قد اخترتكم قضائي لأن ارادة الشعب

هي مشيئة الله ، فأيقظوا قلوبكم واسمعوني جيداً ثم احكموا عليّ بما توحيه ضمائركم . قد قيل لكم بأنني رجل كافر شرير ولكنكم لم تعرفوا ماهي جريمتي . وقد رأيتكموني مكتوفاً كاللص القاتل ولم تسمعوا بعمد بذنوبي لأن حقيقة الجرائم والذنوب في هذه البلاد تظل مستترة وراء الضباب ، أما العقاب فيظهر للناس ظهور أسياف البرق في ظلمة الليل . جريمتي أيها الرجال هي ادراكى تماستكم وشعوري بثقل قيودكم . وآلامي أيها النساء هي شفقتي عليكم وعلى أطفالكن الذين يمتصون الحياة من صدوركن ممزوجة بلهات الموت . أنا واحد منكم أيها الجمع وقد عاش آباءى وجدودي بين هذه الأودية التي تستفرغ قواكم وماتوا تحت هذا النير الذي يلوي أعناقكم . أنا مؤمن بالله الذي يسمع نداء نفوسكم المتوجعة ويرى صدوركم المقروعة واؤمن بالكتاب الذي يجعلكم إخوة متساوين أمام وجه الشمس واؤمن بالتعاليم التي تحررني وتحرركم من عبودية البشر وتوقفنا جميعاً بغير قيود على الأرض موطىء اقدام الله . كنت في الدير راعياً للبقر لكن انفرادي مع البهائم الخرساء في البرية الساكنة لم يُعنى عن المأساة

الألمية التي تمثلونها كرهاً في الحقول . ولم يصمّ اذني عن
صراخ اليأس المتصاعد من قراني الأكواخ . قد نظرت
فرايتني في الدير ورأيتكم في الحقول كقطيع من النماج
سائر وراء ذئب خاطف إلى وكره فوقفت في منتصف الطريق
وصرخت مستغيثاً فهجم الذئب ونهشني بأنيابه المحددة ، ثم
احتال علي وأبعدني كيلاً يثير صراخي روح القطيع فيتمرد
ويتفرق مذعوراً إلى كل ناحية ويتركه منفرداً جائعاً في
ظلام الليل . . قد احتملتُ السجنَ والجوعَ والمطشَ من
أجل الحقيقة الجارحة التي رأيتها مكتوبة بالدماء على
وجوهكم ، وقاسيتُ العذابَ والجلدَ والسخريةَ لأنني جعلت
لبسكينة تهديداتكم صوتاً صارخاً متموجاً في خلايا الدير .
ولكنني لم أخف قط ولم يضعف قلبي لأن صراخكم الأليم
كان يتبع نفسي ويجدد قواي ويحبب إلي الاضطهاد
والاحتقار والموت . . أنتم تسألون نفوسكم الآن قائلين
(أي متى صرخنا متظاهرين وأي فرد منا يتجاسر أن يفتح
شفثيه) وأنا أقول لكم بأن نفوسكم تصرخ متظمة في كل
يوم وقلوبكم تستغيث متوجعة في كل ليلة ولكنكم

لا تسمعون نفوسكم وقلوبكم لان المنازع لا يسمع حشرجة صدره أما الجالسون بجانب مضجعه فيسمعون ، والطائر المذبوح يرقص متمللاً أسر ارادته ولا يعلم ، أما الناظرون فيعلمون . . في أي ساعة من النهار لا تتأوه أرواحكم متوجعة ؟ أفي الصباح عند ما تنهركم محبة البقاء وتمزق نقاب الكرى عن أجفانكم وتقودكم كالبيد إلى الحقول . أم في الظهيرة عند ما تتمنون الجلوس في ظل الأشجار لكي تتقوا سهام الشمس المحرقة ولا تستطيعون . أم في المساء عند ما تمودون جائعين إلى أكوأخكم ولا تجدون سوى الخبز اليابس والماء المكر ؟ أم في الليل عند ما تطرحكم المتاعب على الأسرة الحجرية فتنامون قلقين ولا يكتحل النعاس أجفانكم إلا وتهبون خائفين متوهمين صوت الشيخ يرن في آذانكم . . وفي أي فصل من السنة لا تندب قلوبكم متحسرة ؟ أفي الربيع عند ما ترتدى الطبيعة حلة جديدة فتخرجون لمشاهدتها بأطمار بالية ممزقة ؟ أم في الصيف عند ما تحصدون الزرع وتجمعون الأغمار على البيادر وتملاؤن أهراء سيدكم الظلوم بالغلة ولا تحصلون لقاء أتعابكم على غير التبن

والزوان ؟ أم في الخريف عندما تجنون الأثمار وتمصرون العنب ولا يكون نصيبكم منها سوى الخل والبلوط ؟ أم في الشتاء عند ما يضطهدكم الفضاء ويطردهم البرد والزمهرير إلى الأكواخ الملتحفة بالثلوج ، فتجلسون بجانب المواقد متأففين خائفين غضب الزوابع والعواصف ؟ هذه هي حياتكم أيها الفقراء . هذا هو الليل المخيم على أرواحكم أيها التعساء ، هذه هي أشباح ذلِّكم وشقائقكم أيها المساكين ، هذا هو الصراخ الأليم المستمر الذي سمعته خارجاً من أعماق صدوركم فاستيقظت وتمردت على الرهبان وكفرت بمعيشتهم ، ووقفت منفرداً متظالماً باسمكم واسم العدالة المتوجمة بأوجاعكم فحسبوني كافراً شريراً وطرّدوني من الدير فجئت لكي أشاطركم التعاسة وأعيش بقرْبكم وأمزج دموعي بدموعكم فاسأتموني مكتوفاً إلى عدوكم القوي الذي يغتصب خيراتكم ويحيا غنياً بأموالكم ويملاً جوفه الواسع من أثمار أتعابكم ... ألا يوجد بينكم شيوخ يعامون بأن الأرض التي تخرثونها وتحرمون غلتها هي لكم وقد اغتصبها والد الشيخ عباس من آبائكم عند ما كانت

الشريعة مكتوبة على حد السيف ؟ أما سمعتم بأن الرهبان قد احتالوا على جدودكم وامتلكوا مزارعهم وكرومهم عند ما كانت آيات الدين مخطوطة على شفطي الكاهن ؟ ألا تعلمون بأن ممثلي الدين وأبناء الشرف الموروث يتعاونون على إخضاعكم وإذلالكم واستقطار دماء قلوبكم ؟ أي رجل منكم لم يُلَوِّعْ عُنُقَهُ كاهن الكنيسة أمام سيد الحقول ؟ وأي امرأة بينكم لم يزجرها سيد الحقول ويستحبها لكي تتبع مشيئة كاهن الكنيسة ؟ ..

« قد سمعتم بأن الله قد قال للإنسان الأول (بعرق جبينك تأكل خبزك) فاماذا يأكل الشيخ عباس خبزهُ مجبولا بعرق جبينكم ويشرب خمره ممزوجا بدموعكم ؟ هل ميز الله هذا الرجل وجعله سيداً إذ كان في رَحْمِ أمه أم غَضِبَ عليكم لذنوب مجهولة وبعثكم عبيداً إلى هذه الحياة لكي تجمعوا غلة الحقول ولاتأكلون غير أشواك الأودية، وتقيموا القصور الفخمة ولا تسكنون غير الأكواخ المتداعية ؟ .. قد سمعتم بأن يسوع الناصري قد قال لتلاميذه (مجاناً أخذتم ومجاناً أعطوا .. لا تقتنوا فضة ولا ذهباً ولا

نحاساً في مناطقكم) إذا أي تعاليم أباحتم للرهبان والكهنة
بيع صلواتهم وتعازيمهم بالفضة والذهب؟ .. أنتم تصلون
في سكينه الليالي قائلين (أعطنا يا رب خبزنا كفاف يومنا)
والرب قد وهبكم هذه الأرض لتمطيكم الخبز والكفاف
فهل وهب رؤساء الأديرة السلطة لانتزاع هذا الخبز من بين
أيديكم؟ أنتم تلعنون يهوذا لأنه باع سيده بالفضة فأى
شئ يجعلكم أن تباركوا الذين يبيعونه في كل يوم من حياتهم؟
أن يهوذا التمس قد ندم على خطيئته فشقق نفسه، أما
هؤلاء فيسيرون أمامكم برؤوس مرفوعة وأذيال طويلة باعمة
وقلائد ذهبية وخواتم ثمينة. أنتم تعلمون أنبائكم محبة
الناصري فكيف تعلمونهم الخضوع أمام مبغضيه ومخالفى
تعاليمه وشرائعه، قد عرفتم بأن رسل المسيح قد ماتوا قتلاً
ورجماً لكي يحيوا فيكم الروح المقدسة فهل تعرفون بأن
الرهبان والكهنة يقتلون أرواحكم لكي يحيوا متمتعين
بخيراتكم متلذذين بحرقة قيودكم، ماذا نفرم أيها المساكين
في وجود مفعم بالذل والهوان ويبقيكم راكعين أمام صنم
مخيف أقامه الكذب والرياء على قبور آبائكم. وأي كنز

ثمين تحافظون عليه بخضوعكم لتبقوه إرثاً لابنائكم ؟
« نفوسكم في قبضة الكاهن ، وأجسادكم بين مخالب
الحاكم ، وقلوبكم في ظلمة اليأس والأحزان . فأني شئ
في الحياة يمكنكم أن تشيروا إليه قائلين (هذا لنا) أتعرفون
أيها المستسلمون الضعفاء من هو الكاهن الذي تهابونه
وتقيمونه وصياً على أقدم أسرار نفوسكم ؟ اسمعوني فأبين
لكم ما تشعرون أنتم به وتخافون إظهاره .. هو خائن يعطيه
المسيحيون كتاباً مقدساً فيجعله شبكة يصطاد بها أموالهم
ومراتي يقلده المؤمنون صليباً جميلاً فيمتشقونه سيفاً سنينا
ويرفعه فوق رؤوسهم ، وظالم يسلمه الضعفاء أعناقهم فيربطها
بالمقاود ويوثقها باللجم ويقبض عليها بيد من حديد ولا يتركها
حتى تنسحق كالفضة وتتبدد كالرماد .. هو ذنب كاسر
يدخل الحظيرة فيظنه الراعي خروفاً وينام مطمئناً وعند
مجيء الظلام يثب على النعاج ويخنقها نعمة لأثر نعمة ، هو
نهم يحترم مواعيد الطعام أكثر من مذايح الهيكل ، وطامع
يتبع الدينار إلى مغاور الجن ويمتص دماء العباد مثلما تمتص
رمال الصحراء قطرات المطر ، وبخيل يحرص على أنفاسه

ويَدَّخِرُ مَالاً يَحْتَاجُهُ . هو مجتال يدخل من شقوق الجدران ولا يخرج إلا بسقوط البيت . ولص صخري القلب ينزع الدرهم من الأرملة والفلس من اليتيم . هو مخلوق عجيب له منقاد النسر ومقابض النمر وأنياب الضبع وملامس الأفعى ، خذوا كتابه ومزقوا ثوبه وانتفوا لحيته وافعلوا به ما شئتم ثم عودوا وضمعوا الدينار في كفه فيغفر لكم ويبتسم بمحبة ، اصفعوا خده وابصقوا بوجهه ودوسوا عنقه ثم اجلسوه على موائدكم فيتناسى ويتهلل ويحل حزامه لينموجوفه بما كلكم ومشاربكم . . جدفوا على اسم ربه واقذفوا بمعائده واسخروا بايمانه ثم ابعثوا اليه بجرة من الخمر أو بسلة من الفاكهة فيسأحكم ويبرركم أمام الله والناس . يرى المرأة فيجول وجهه قائلاً بأعلى صوته (ابتمدى عني يا ابنة بابل) ثم يهمس بسرّه قائلاً . (الزيجة أفضل من التحرق) . . يرى الفتيان والصبايا سائرين في موكب الحب فيرفع عينيه نحو السماء ويهتف قائلاً (باطلة الأباطيل وكل شيء تحت الشمس باطل) ثم يختلي ويتنهد قائلاً : (لتفتر الشرائع وتضمحل التقاليد التي أبعدتني عن غبطة الحياة : وأحرمتني

ملذات العمر) . . يقول للناس مستشهداً (لا تدينوا مثلاً
تدانوا) ولكنه يدين بقساوة جميع الذين يسخرون بمكافهه
ويبعث بأرواحهم الى الجحيم قبل أن يبعث الموت عن هذه
الحياة . . يحدثكم رافعا عينيه بين الآونة والأخرى نحو
العلاء أما فكرته فتظل مناسبة كالأفقي حول جيوبكم .
ينادىكم بقوله لكم (يا أولادى ويا أبنائى) وهو لا يشعر
بالعاطفة الابوية ولا بتسم شفتاه لرضيع ولا يحمل طفلا على
منكبيه . يقول لكم هازأ رأسه بتخضع (لترفعن عن
العالميات لأن أعمارنا تضمحل كالضباب وأيامنا تزول كالغيء)
وإذا نظرتم جيداً رأيتموه متمسكا بأذيال الحياة متشبهاً
بأهداب العمر ، متأسفاً على ذهاب الأمس ، خائفاً من
سرعة اليوم ، مترقباً مجيء الغد . . يطلب منكم الاحسان
وهو أوفر منكم مالا فإن أحببتموه يبارككم علناً وإن
منعتموه يلعنكم سراً . . في الهيكل يوصيكم بالفقراء
والمحتاجين وحول منزله يصرخ الجائعون وأمام عينيه تمد
أيدى البائسين فلا ينظر ولا يسمع . . يبيع صلاته ومن
لا يشتري يكون كافراً بالله وأنبيائه محروماً من الجنة والنعيم .

هذا هو المخلوق الذي يخيفكم أيها المسيحيون . هذا هو
الراهب الذي يمتص دماءكم أيها الفقراء . هذا هو الكاهن
الذي يرسم إشارة الصليب يمينه ويقبض على قلوبكم بشماله .
هذا هو الأسقف الذي تقيمونه خادماً فينقلب سيّداً ،
وتطويونه قديساً فيصير شيطاناً ، وترفعونه نائباً فيصبح نيراً
ثقيلاً . هذا هو الظل الذي يتبع أرواحكم منذ بلوغها هذا
العالم حتى رجوعها إلى الأبدية ، هذا هو الرجل الذي جاء
في هذه الليلة لكي يدينني ويرذلني لأن روحي تمردت على
أعداء يسوع الناصري الذي أحبكم ودعاكم إخوة له ثم
صُلب من أجلكم »

وتهلل وجه الشاب المكتوف وقد شعر باليقظة الروحية
التمائلة في صدور سامعيه واتضح له تأثيرات كلامه في
وجوه الناظرين إليه فرفع صوته وزاد قائلاً « قد سمعتم
أيها الاخوة بأن الشيخ عباس قد أقامه الأمير أمين الشهابي
سيّداً على هذه القرية . وسمعتم أيضاً بأن الأمير قد أقامه
المليك حاكماً على هذا الجبل فهل سمعتم أو رأيتم القوة التي
أقامت المليك رباً على هذه البلاد ؟ أنتم لا ترون تلك القوة

متجسدة ولا تسمعونها متكلمة ولكنكم تشعرون
بوجودها في أعماق أرواحكم، وتسجدون أمامها مصليين
مبتهلين وتنادونها بقولكم (أبانا الذي في السماوات) نعم إن
أباكم السماوي هو الذي يقيم الملوك والأمراء وهو القادر على كل
شيء. ولكن هل تعتقدون بأن أباكم الذي أحبكم وعلمكم
سبل الحق بواسطة أنبيائه يريد أن تكونوا مظلومين
ومرذولين؟ هل تعتقدون بأن الله الذي ينزل السحاب مطراً،
ويستنبت البذور زرعاً، وينمي الزهور أنهاراً، يريد أن تكونوا
جوعاً ومحتقرين لكي يبق واحد بينكم منتفخاً متلذذاً؟ هل
تعتقدون بأن الروح السرمدية الذي يوحى إليكم محبة الزوجة
والرافة بالبنين والشفقة على القريب يقيم عليكم سيداً قاسياً
يظلمكم ويستعبد أيامكم؟ هل تعتقدون بأن النواميس
الأزلية التي تحب إليكم نور الحياة تبعث إليكم بمن يحب
إليكم ظلمة الموت؟ هل تعتقدون بأن الطبيعة قد بعثت
القوى في أجسادكم لكي تعود وتخضعها أمام الضعيف؟
أنتم لا تعتقدون بهذه الأشياء لأنكم إن فعلتم تكونون
كافرين بالعدل الإلهي جاحدين نور الحق الذي يضيء على

جميع الناس . إذا أي شيء يجعلكم أن تساعدوا الشرير على نفوسكم ؟ ولماذا تخافون مشيئة الله الذي بعثكم أحراراً الى هذا العالم وتصيرون عبيداً للمتمردين على ناموسه ، كيف ترفعون أعينكم نحو الله القوي وتدعونه أبائكم تمنون رقابكم أمام الانسان الضعيف وتدعونه سيديداً ؟ كيف يرضى أبناء الله أن يكونوا عبيداً للبشر ، أما دعاكم يسوع إخوة فكيف يدعوكم الشيخ عباس خدماً ؟ أما جعلكم يسوع أحراراً بالروح والحق فكيف يجعلكم الأمير عبيداً للحيف والفساد ؟ أما رفع يسوع رؤوسكم نحو السماء فكيف تخفضونها الى التراب ؟ أما سكب يسوع النور في قلوبكم فكيف تغمرونها بالظلام ؟ .. ان الله قد بعث أرواحكم في هذه الحياة كشملات مضيئة تنمو بالمعرفة وتزيد جمالا باستطلاعها خفايا الأيام والليالي فكيف تلحقونها بالرماد لتبيد وتنطفئ . ان الله قد وهب نفوسكم أجنحة لتطير بها ساجدة في فضاء الحب والحرية فلماذا تجزونها بأيديكم وتدبون كالخشرات على أديم الأرض . ان الله قد وضع في قلوبكم بذور السعادة فكيف تنزعونها

وتطرحونها على الصخر لتلتقطها الغربان وتذريها الأرياح ؛
ان الله قد رزقكم البنين والبنات لكي تدربوهم على سبيل
الحق وتملأوا صدورهم بأغاني الكيان وتتركوا لهم غبطة
الحياة إرثاً ثميناً فكيف تهجمون وتخلفونهم أمواتاً بين أيدي
الدهر ، غرباء في أرض مولدهم ، تمساء أمام وجه الشمس ؛
أوليس الوالد الذي يترك ابنه الحر عبداً يكون كالوالد الذي
يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً ؟ أما رأيتم عصافير الحقل
تدرب فراخها على الطيران فكيف تعلمون صغاركم جرات القيود
والسلاسل ؟ أما رأيتم زهور الأودية تستودع بذورها حرارة
الشمس فكيف تسامون أطفالكم إلى الظلمة الباردة «
وسكت خليل هنيهة كأن أفكاره وعواطفه قد نمت
واتسمت فلم تعد ترتدى الألفاظ ثوباً ثم قال بصوت منخفض
« ان الكلام الذي سمعتموه مني في هذه الليلة هو الكلام
الذي طردني الرهبان من أجله ، والروح التي شعرتتم بتموجاتها
في قلوبكم هي الروح التي أوقفتني مكتوفاً أمامكم ، فإن وثب
علي سيد حقولكم وكاهن كنيسةكم وصرعاني أموت
بسعيداً فرحاً لأنني باظهارى لكم حقيقة ما يحسبه الظالمون

جُرْمَاهَا ثَلَاثًا قَدْ تَمَّتْ مَشِيئَةُ بَارئٍ وَبَارئِكُمْ »

كان خليل يتكلم وفي صوته الجمهوري نفمة سحرية
تضطرب لها قلوب الرجال الناظرين اليه باعجاب يشابه
استغراب الأعمى إذا ما أبصر فجأة وتهتز لحلاوتها نفوس
النساء المحذقات به بأعين طافحة بالدموع . أما الشيخ عباس
والخوري الياس فكانا يرتجفان غضباً ويتلويان كالمطروحين
على وسائل من الأشواك . وقد حاول كل منهما أن يوقف
الشاب عن الكلام فلم يستطع لأنه كان يخاطب الجمع بقوة
علوية تشابه الماصفة بمزمها والنسيم برقتها .

ولما انتهى خليل من كلامه وقد تراجع قليلاً إلى الوداء
ووقف بجانب راجيل ومريم حدث سكوت عميق كأن
روحة المرفرفة في جوانب تلك القاعة الوسيعة قد حولت
بصائر القرويين نحو مكان قصي وانزعجت الفكر والارادة
من نفسي الشيخ والكاهن وأوقفتهما مر تعشين أمام أشباح
ضميريهما المزعجة .

حينئذ وقف الشيخ عباس وقد تقلصت ملامحه واصفر
وجهه وانهر الرجال الواقفين حوله قائلاً بصوت مخنوق

« ما أصابكم أيها الكلاب ؟ هل تسمت قلوبكم وجمدت الحياة في داخل أجسادكم فلم تعودوا قادرين على تمزيق هذا الكافر المهزار .. هل اكتنفت روح هذا الشيطان أرواحكم وكبّلت بسحره الجهني سواعدكم فلم تستطيعوا إبادة »

قال هذه الكلمات وامتشق سيفاً كان بجانبه وهجم على الفتى المكتوف ليوقع به فتقدم رجل قوي البنية من بين الشعب واعترضه قائلاً بهدوء : « أغمد سيفك ياسيدي لأن من يأخذ بالسيف بالسيف يهلك »

فارتعش الشيخ عباس وسقط السيف من يده وصرخ قائلاً « هل يعترض الخادم الضعيف سيده وولي نعمته » فأجابه الرجل : « الخادم الأمين لا يشارك سيده بالشرور والمظالم . ان هذا الشاب لم يقل غير الحق ولم يعلن لهؤلاء السامعين سوى الحقيقة »

وتقدم رجل آخر وقال : « لم يقل هذا الفتى شيئاً يستوجب الحكم فلماذا تضطهده »

ورفعت امرأة صوتها وقالت « لم يقتد بالدين ولم

(١٠ — الأرواح المتمردة)

بنعمة سيدكم أيها الأجلاف وتجدون فضله وتنكرونه من
أجل فتى مجرم كافر وامرأة عاهرة كاذبة »

فأجابه أكبر الخدام سناً وقال « قد خدمنا الشيخ عباس
لقاء الخبز والمأوى ولـكـنـنـا لم نـسـكـن له عبيداً قط » قال هذا
ونزع عباءته وكوفيته وطرحهما أمام الشيخ عباس وزاد
قائلاً : « لا أريد أن أنمّ جسدي بهذه الملابس الحقيرة كيما
تبقى نفسي متمذبة في منزل سقّاك الدماء »

ففعل الخدام كافة نظيره وانضموا الى الجمع وعلى
وجوههم سياء الانعتاق والحرية .

فلما رأى الخوري الياس ما فعلوه وقد شعر بأن سلطته
الكاذبة قد تضعضعت خرج من ذلك المنزل مجدفاً على الساعة
التي أتت بخليل الى تلك القرية .

حينئذ تقدم رجل من بين الجمع وخل وثاق خليل ونظر
الى الشيخ عباس المرتقي على كرسيه كجثة هامدة وبلهجة
مملوءة بالعزم والارادة خاطبه قائلاً : « إن الشاب الذي
أحضرته مكتوفاً لكبي تحاكمه كمجرم أثيم قد أنار قلوبنا
المظلمة وحول بصائرنا نحو سبل الحق والمعرفة . والأرملة

البائسة التي دعوتها عاهرة كاذبة قد أبانت لنا السر الهائل الذي ظل مكتوماً خمسة أعوام . أما نحن فقد تراكضنا مسرعين إلى هذه الدار بدينونة البري، واضطهاد العادل والآن وقد انفتحت أعيننا وأرتنا السماء جريمتك الخفيفة ومظالمك القاسية نفادرك منفرداً ولا ندينك، ونهلك ولا نشكوك ونبتعد عنك طالبين من السماء أن تفعل مشيئتها بك »
وارتفعت اذ ذاك أصوات الرجال والنساء في تلك القاعة الوسيعة فكان هذا يقول : هلموا نخرج من هذا المكان المشحون بالآثام والمعاصي ونذهب إلى بيوتنا . وذا يصرخ : تعالوا تتبع الشاب إلى بيت راحيل ونسمع حكمته المعزية وأقواله المذبة . وذاك يهتف : لنفعلن إرادة خليل فهو أعلم بحاجتنا وأدرى منا بمطالبنا . وغيره يقول : إن كنا نريد العدل والانصاف فلنذهب غداً إلى الأمير أمين ونخبره بجرائم الشيخ عباس ونطلب إليه أن يعاقبه . وآخر يصيح : يجب أن نستعطف الأمير ونرجوه أن يقيم خليلاً ممثلاً له في هذه القرية . وغيره يقول يجب أن نشكو الخوري الياس إلى الأسقف لأنه يشارك الشيخ بجميع أعماله .

وبينما هذه الأصوات تتصاعد من كل ناحية وتهبط كالسهم الحادة على صدر الشيخ الخفوق رفع خليل يده وأسكت الجمع بإشارة ثم ناداهم قائلاً « اسمعوا وتبصّروا أبها إياخوة ولا تكونوا متسرعين أنا أطلب اليكم باسم محبتي ألا تذهبوا الى الأمير فهو لا ينصفكم من الشيخ لأن الكواسر لا تنهش بعضها البعض . ولا تشكوا الكاهن الى رئيسه لأن الرئيس يعلم ان البيت الذي ينقسم على ذاته يخرّب ، ولا تطلبوا أن أكون ممثلاً للحاكم في هذه القرية لأن الخادم الأمين لا يريد ان يكون عوناً للسيد الشرير . ان كنت خليقاً بحبيكم وانعطافكم دعوني أعيدش بينكم وأشاركم بافراح الحياة وأحزانها ، وأشاطركم العمل في الحقول والراحة في المنازل ، لأننى ان لم أكن كواحد منكم أكون كالمرائيين الذين يكرزون بالفضيلة ولا يفعلون غير الشر . والآن وقد وضعت الفأس على أصل الشجرة تعالوا نذهب تاركين الشيخ عباس واقفاً في محكمة ضميره أمام عرش الله الذي يشرق شمسُه على الأبرار والأشرار » قال هذا وخرج من ذلك المكان فاتبعه الجمع كأن في

شخصه قوة تتحول نحوها الابصار كيفما تحولت . وبقى الشيخ
منفرداً كالبرج المهذوم متوجعاً كالفائد المغلوب . ولما بلغ الجمع
ساحة الكنيسة وكان القمر قد طلع من وراء الشفق وسكب
أشعته الفضية في السماء التفت خليل ورأى أوجه الرجال
والنساء متجهة نحوه كالخراف الناظرة الى راعيها فتحركت
روحه في داخله كأنه وجد في أولئك القرويين المساكين رمز
الشعوب المظلومة وشاهد في تلك الاكواخ الحقيرة المكتتفة
بالثلوج المتجلدة رمز البلاد المغمورة بالذل والهوان ، فوقف
وقفه نبي يسمع صراخ الأجيال ، وتغيرت ملامحه واتسعت
عيناه كأن نفسه قد أبصرت جميع أم المشرق سائرة بتجريد
العبودية في تلك الأودية ، فرفع كفيه نحو العلاء وبصوت
يشابه ضجيج الأمواج صرخ قائلاً :

« من أعماق هذه الأعماق نناديك أيتها الحرية فاسمعي .
من جوانب هذه الظامة ترفع أكفنا نحوك فانظرينا . وعلى
هذه الثلوج نسجد أمامك فارحمينا . أمام عرشك الرهيب
نقف الآن ناشرين على أجسادنا أثواب آبائنا الملتخعة بدمائهم ،
عافرين شعورنا بتراب القبور المزوج ببقاياهم ، حاملين

السيوف التي أُنمِدتْ بِكَبادهم ، رافعين الرماح التي خرقت
صدورهم ، ساجدين القيود التي أبادت أقدامهم ، صارخين
الصراخ الذي جرح حناجرهم ، ناثحين النواح الذي ملأ ظلمة
سجونهم ، مصلين الصلاة التي انبثقت من أوجاع قلوبهم ،
فاصغي أيتها الحرية واسمعينا . . من منبع النيل الى منصب
الفرات يتصاعد نحيوك عويل النفوس متموجاً مع صراخ
الهاوية ، ومن أطراف الجزيرة الى جبهة لبنان تمتد اليك
الأيدي مرتعشة بنزاع الموت ، ومن شاطئ الخليج الى أذيال
الصحراء ترتفع نحيوك الأعين مغمورة بذوبان الأفئدة ،
فالتفتي أيتها الحرية وانظرينا : في زوايا الأكواخ القائمة في
ظلال الفقر والهوان تُقرع أمامك الصدور ، وفي خلايا
البيوت الجالسة في ظلمة الجهل والغباوة تطرح لديك القلوب ،
وفي قراني المنازل المحجوبة بضباب الجور والاستبداد تحن
إليك الأرواح ، فانظري أيتها الحرية وارحمينا . . في المدارس
والمكاتب تناجيك الشبيبة اليائسة ، وفي الكنائس والجوامع
يستميلك الكتاب المتروك ، وفي المحاكم والمجالس تستغيث
بك الشريعة المهملة ، فاشفقي أيتها الحرية وخلصينا . . في

شوارعنا الضيقة يبيع التاجر أيامه ليعطي أثمانها الى لصوص
المغرب ، ولا من ينصحه ، وفي حقولنا المجربة يحفر الفلاح
الأرض بأظافره ، ويزرعها حبات قلبه ، ويسقيها دموعه ،
ولا يستغل غير الأشواك ولا من يعلمه . وفي سهولنا الجرداء
يسير البدوي عارياً حافياً جائماً ولا من يترأف عليه ، فتكلم
أيها الحرية وعلمينا .

« ناعجنا ترتعي الأشواك والحسك بدلا من الزهور
والأعشاب ، ومجولنا تقضم أصول الأشجار بدلا من الذرة ،
وخيولنا تلتهم الهشيم بدلا من الشعير فهلمي أيها الحرية واقظينا .
« منذ البدء وظلام الليل يخيم على أرواحنا فأى متى
يجيء الفجر ، من الحبوس الى الحبوس تنتقل أجسادنا
والأجيال تمر بنا ساخرة فأى متى نحتمل سخرية الأجيال ؟
ومن نير ثقيل الى نير أثقل تذهب أعناقنا وأمم الأرض تنظر
من بعيد ضاحكة منا فأى م نصبر على ضحك الأمم ؟ ومن
القيود إلى القيود تسير ركابنا فلا القيود تفتى ولا نحن ننقرض .
فأى متى نحى — »

« من عبودية المصريين إلى سبي بابل إلى قساوة الفرس

إلى خدمة الاغريقين إلى استبداد الروم إلى مظالم المغول
إلى مطامع الإفرنج فإلى أين نحن سائرون الآن ، وأي متى
نبلغ جبهة العقبة — ؟

« من مقابض فرعون الى مخالب نبوختنصر إلى أطافر
الاسكندر إلى أسياف هيرودس إلى برائن فيرون إلى أنياب
الشیطان فإلى يد من نحن ذاهبون الآن وأي متى نبلغ قبضة
الموت فنرتاح من سكينه العدم — ؟

« بعزم سواعدنا قد رفعوا أعمدة الهياكل والمعابد
لمجد آلهتهم ، وعلى ظهورنا قد نقلوا الطين والحجارة لبناء
الأسوار والبروج لتعزيز حماهم ، وبقوى أجسادنا قد أقاموا
الأهرام لتخليد أسمائهم ، فحقى متى نبني القصور والصروح
ولا نسكن غير الأكواخ والكهوف ، ونملأ الأهرام
والخزائن ولا نأكل غير الثوم والكرات ، ونحوك الحرير
والصوف ولا نلبس غير المسوح والأطمار .

« بخبثهم واحتياهم قد فرقوا بين العشيرة والعشيرة
وأبعدوا الطائفة عن الطائفة ، وبمضوا القبيلة بالقبيلة ، فحقى
متى نتبدد كالرماد أمام هذه الزوبعة القاسية ، وتتصارع

كالاُشبال الجائعة بقرب هذه الجيفة المنتنة »
« لحفظ عروشهم وطمانينة قلوبهم قد سلّحوا الدرزي
لمقاتلة العربي وحمّسوا الشيعي لمصارعة السني ونشطوا الكردي
لذبح البدوي وشجعوا الأحمدي لمنازعة المسيحي. فحتى متى
يصرع الأخ أخاه على صدر الأم وإلى متى يتواعد الجار جاره
بجانب قبر الحبيبة وإلى متى يتباعد الصليب عن الهلال أمام عين الله .
« أصغي أيتها الحرية واسمعي ، التفتي يا أم ساكني
الأرض وانظرينا فنحن لسنا أبناء ضرتك ، تكلمي بلسان
فرد واحد منا ، فمن شرارة واحدة يشتعل القش اليابس .
أيقظي بحفيف أجنحتك روح رجل من رجالنا ، فمن سحابة
واحدة ينبثق البرق وينير بلحظة خلایا الأودية وقم الجبال ،
بددي بعزمك هذه الغيوم السوداء ، وانزلي كالصاعقة واهدي
كالمنجنیق قوائم العروش المرفوعة على العظام والجماجم المصفحة
بذهب الجزية والرشوة ، المغمورة بالدماء والدموع . »
« اسمعي أيتها الحرية ، ارحمينا يا ابنة أئمتنا ، اتقينا
يا أخت رومة ، خلصينا يا رفيقة موسى ، أسمعينا يا حبيبة
محمد ، علمينا يا عروسة يسوع ، قوي قلوبنا لنحي أو شدي

سواعد أعدائنا علينا فننفي وننقرض ونرتاح »
كان خليل يناجى السماء وعيون الفلاحين مُحدّقة به ،
وعواطفهم تنسكب مع نعمة صوته ، ونفوسهم تتطأّر مع
أنفاسه ، وصدورهم تخفق بنبضات قلبه ، فكانه أصبح منهم
في تلك الساعة بمنزلة الروح من الجسد . ولما انتهى من
مناجاته التفت نحوه وقال بهدوء « قد جمعنا هذا الليل
في منزل الشيخ عباس لكي نرى نور النهار ، وأوقفنا المظالم
أمام هذا الفضاء البارد لكي نتغام وننضم كالفراخ تحت
جناحى الروح الخالدة . فليذهب الآن كل منا إلى فراشه
لينام مترقباً لقاء أخيه في الصباح »

قال هذا ومشى متبعاً خطوات راحيل ومريم إلى
كوخهما . فتفرق إذ ذاك الجمع وذهب كل إلى بيته مفكراً
بما سمعه وراه شاعراً بملامس حياة جديدة في داخل نفسه
ولم تمر ساعة حتى انطفأت السرج في الأكواخ والقت
السكينة وشاحها على تلك القرية وحملت الأحلام أرواح
الفلاحين تاركة روح الشيخ عباس ساهرة مع أشباح الليل
مرتعدة أمام ذنوبه متمذبة بين أنياب هواجسه .



مر شهران و خليل يسكب سرائر روحه في قلوب
اولئك القرويين محدثاً أيام في كل يوم عن غوامض حقوقهم
وواجباتهم، مصوراً لبصائرهم حياة الرهبان الطامعين مرددا
على مسامعهم أخبار الحكم القساة، جاعلا بين عواطفه
وعواطفهم صلة قوية شبيهة بالنواميس الأزلية التي تقيد
الأجرام ببعضها بعضاً، فكانوا يصنعون إليه بفرح يضارع
بهجة الحقول الظمآنة بالهطال الأمطار، ويرددون كلامه
في خلوتهم ملبسين نسمات مقاصده أجساداً من محبتهم غير
حافلين بالخوري الياس الذي أصبح يتزلف إليهم منذ ظهور
جريمة حليفه الشيخ، ويقرب منهم ليناً كالشمع بعد أن كان
صلباً كالرخام .

أما الشيخ عباس فقد أصيب بعلة في نفسه شبيهة
بالجنون، فكان يسير ذهاباً وإياباً في رواق منزله كالنمر
المسجون، وينادي خدامه بأعلى صوته فلا يجيبه غير الجدران

ويصرخ مستنجداً برجاله : فلا يأتي لمعونة غير زوجته .
المسكينة التي عانت من خشونة طباعه ما قاساه الفلاحون
من مظالمه واستبداده . ولما جاءت أيام الصوم وأعلنت
السما قدوم الربيع انقضت أيام الشيخ بانقضاء زوابع الشتاء
فمات بعد نزاع موحج مخيف ، وذهبت روحه محمولة على
بساط أعماله لتقف عارية أمام ذلك العرش الذي نشمر
بوجوده ولا نراه ، وقد اختلفت آراء الفلاحين في سبب
موته ، فكان بعضهم يقول قد اختلفت شعوره فقضى مجنوناً
وبعضهم يقول قد سم اليأس حياته عندما زالت سطوته فمات
منتحراً . أما النساء اللواتي ذهبن لتعزية زوجته فأخبرن
رجالهن بأنه مات خائفاً مرتاعاً . لأن شبح سمعان الرامى
كان يظهر له مرتدياً أثواباً ملطخة بالدماء ويقوده كرهاً عند
ما ينتصف الليل إلى المكان الذي وجد فيه مصروعاً منذ
خمسة أعوام .



وأعلنت أيام نيسان لسكان تلك القرية سرائر الحب
الخفية الكائنة بين روح خليل وروح مريم ابنة راحيل

قتهللت وجوههم فرحاً ، ورقصت قلوبهم ابتهاجاً . ولم يعودوا
يخشون ذهاب الشاب الذي أيقظ قلوبهم إلى محيط أوسع .
وأرقى من وسطهم فطافوا يبشرون بعضهم بعضاً بصيرورته
جاراً قريباً وضميراً محبوباً لكل واحد منهم .

ولما جاءت أيام الحصاد خرج الفلاحون إلى الحقول
وجمعوا الأثمار على البيادر ولم يكن الشيخ عباس هناك
ليغتصب الغلة ويحملها إلى أهرائه ومخازنه بل كان كل من
الفلاحين يستغل الحقل الذي فلهه وزرعه فامتلات تلك
الأكواخ من القمح والذرة والتمر والزيت .

أما خليل فكان يشاطرهم الأتعاب والمسرات ويساعدهم
بجمع الغلة وعصر العنب واجتناء الأثمار . ولم يكن يميز نفسه
عن الواحد منهم إلا بمحبته ونشاطه .

منذ تلك السنة إلى أيامنا هذه أصبح كل فلاح في تلك
القرية يستغل بالفرخ الحقل الذي زرعه بالأتعاب ، وجمع
بالمسرة أثمار البستان الذي غرسه بالمشقة . فصارت الأرض
ملكاً لمن يفلحها ، والكروم نصيباً لمن ينقبها ويحرقها .
والآن وقد انقضى نصف قرن على هذه الحادثة .

وراودت اليقظة أجفان اللبنانيين. يمر المسافر على طريقه إلى غابة الارز ويقف متأملاً بمحاسن تلك القرية الجالسة كالعروس على كتف الوادي فيرى أكوأخها قد صارت بيوتاً جميلة مُكْتَنَفَةً بالحقول الحصيبة والحدائق الناضرة، وان سأل أحد سكانها عن تاريخ الشيخ عباس يُجيبه مشيراً نحو حجارة متقوضنة وجدران مهدومة مرتمة قائلاً « هذا قصر الشيخ عباس وهذا هو تاريخ حياته ». وان سألته عن خليل يرفع يده إلى السماء قائلاً « هناك يسكن خليلنا الصالح أما تاريخ حياته فقد كتبه آباؤنا بأحرفٍ من شعاعٍ على صفحات قلوبنا فلن تمحوه الأيام والليالي »

﴿ تمت ﴾